أنا الذي حركت قطعة الجبن الخاصة بك

كتاب غير تقليدي لتطوير الذات دون أي عناء

تأليف

داريل بريستو بوقي

إعداد قسم الترجمة بدار الفاروق





أنا الذي
حركت قطعة الجبن
الخاصة بك

الناشر: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية (ش.م.م)

العنوان: ١٢ ش الدقي – الجيزة – مصر
تليفون: ٠٢/٣٧٦٢٢٨٣٠ – ٠٢/٣٧٦٢٢٨٣١ – ٠٢/٣٧٦٢٢٨٣٢ /٠٠٢ –
٠٢/٣٧٤٨٠٧٢٩ – ٠٢/٣٧٤٩١٣٨٨
فاكس: ٠٢/٣٣٣٨٢٠٧٤

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية. إدارة الشئون الفنية.

بريستو، داريل
أنا الذي حركت قطعة الجبن الخاصة بك – تأليف/ داريل بريستو بوفي؛ ترجمة قسم الترجمة بدار الفاروق – ط ٠١– الجيزة: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية (ش.م.م)،
٨٤ ص؛ ٢٢ سم./١٨
تدمك: 978-977-455-664-1
رقم الإيداع: ٢٠١٠/١٧١٠٧
١ – الذاتية
أ– دار الفاروق للاستثمارات الثقافية، قسم الترجمة (مترجم)
ب– العنوان
ديوي: ١٥٥,٢٣

الطبعة العربية الأولى: ٢٠١١
الطبعة الأجنبية: ٢٠٠٣
المطبعة: مطبعة آيات

www.daralfarouk.com.eg
www.darelfarouk.com.eg

أنا الذي

حركت قطعة الجبن

الخاصة بك

المحتويات

مقدمة

هذا الكتاب ليس كتابًا آخر من كتب تطوير الذات. حقًّا إنه ليس كذلك. ولن يحدث بأية حالٍ من الأحوال – عزيزي القارئ – أن أفعل هذا بك. فالكتب من هذا النوع يكون لها بالِغ الضرر على تقدير المرء لنفسه واحترامه لذاته. إنها أشبه ما تكون بالنظم الغذائية، أو ألعاب الجيمانزيوم؛ فهي تقدم في ظاهرها وعوداً بالمساعدة، ولكنها – في حقيقة الأمر – تجعلك موضع سخرية. إنها تضيف إلى توقعاتك وآمالك، ثم تتركك فريسةً لمشاعر الحسرة والضيق.

على غرار النظم الغذائية المضللة وألعاب الجيمانزيوم الخادعة، تنسج كتب تطوير الذات خيوطًا من وهم تشعرك أنه في مقدورك فعل أي شيء وكل شيء في سبيل التطوير من نفسك؛ فتجعلك تشعر مثلاً أنه في استطاعتك أن تصبح أكثر رشاقةً، وأكثر علمًا وحكمةً، وأكثر جاذبيةً، أو قد تعدك – مثلاً – أنه في استطاعتك قضاء عطلات أسبوعية ممتعة على الطريقة التي تريدها. ستشعر أنك قادر على تطوير ذاتك، وأنك الوحيد الذي يملك القدرة على جلب الحظ السعيد والفرص الذهبية إلى هذا العالم الذي سيقف بدوره إجلالاً لك وانبهاراً بكل ما يراك تفعله. إن الكتب من هذا النوع تهديك الأمل جناحًا تحلق به في الآفاق العالية، وعندما تفشل في التحليق من جديد، تتركك تسقط بكل قسوة كما لو كنت ورقةً خاسرة، أو تدعك تهيم على وجهك دون وجهةٍ محددة.

وحتى لا أطيل عليك، فإن الأمر يتلخص في أن كتب تطوير الذات ليست لها أهمية تذكر، والسبب جليٌ وواضح: إنها تتوقع منك أن تنجز العمل برمته. وبالتالي، فإنها لا تعدو – في النهاية – أن تكون أكثر من مجرد مجموعة صفحات خالية إلى جوارها قلم. وأنت وحدك من عليه أن يخط بالقلم في تلك الصفحات.

بصرف النظر عما تقدمه لك هذه النوعية من الكتب من وعودٍ بسرعة التغيير وسهولته، فإنه يجمع بينها جميعًا قاسم واحد مشترك يدفعها دفعًا إلى الفشل، إنها تطالبك ببذل بعض الجهد. وربما تبدو القوانين السبعة للنجاح، كما يمكن أن نسمِّيَها، كما لو كانت قد نجحت في إنجاز المأثرة المدهشة في اختصار العلوم الثقافية المختلفة التي تجمعت على مدار آلاف السنين في سبع مجموعات سهلة الاستيعاب. وعلى الرغم من سهولتها، فلا يزال متوقعًا منك حفظ هذه القوانين عن ظهر قلب وتذكرها جيدًا، أو على الأقل تدوينها لحين عمل شيءٍ حيالها. إنها الحقيقة الجوهرية التي يغض معظم مؤلفي كتب تطوير الذات الطرف عنها، فإذا كان الواحد منا لديه القدرة حقًّا أو حتى الاستعداد كي يساعد نفسه، فلماذا كان سيشتري تلك الكتب التي توكِل إلينا بجميع المهام كي ننفذها.

إذا كنت – عزيزي القارئ – مثلي، وأظنك في قرارة نفسك كذلك، فإنك – بلا شك – تعوزك العزيمة القوية للعمل بإصرار ومثابرة على ما فيه تطوير ذاتك وتنمية قدراتك. فهناك وجه شَبَه – ولو طفيف – بين البشر في كل أنحاء العالم: إنك لا تمتلك الكثير في جُعبتك لتطوير نفسك والعالم من حولك. وبمرور الوقت، سوف تدرك أنه ثمة مشكلة ما، ولن تجد أمامك حلاً إلا أن تهد ما بنيته لتبدأ من جديد وتعيد الكرَّة. وعن نفسي – وإن كنت سأبدو متسرعًا في بيان كوني مختلفًا عن البشر – فأنا أرى أن الكل يبدو مصدرًا لإثارة المشاكل.

إنَّ دوري هنا يتلخص في استبيان هذه الأمور أمامك وعرضها عليك كي تعرف أنه لا داعي لأن تخجل من نفسك، فجميعنا – نحن البشر – كذلك. وهيا ردد معي: "كلنا كسالى، كلنا متوانون عن العمل، كلنا خاملون بكل ما تحمله الكلمة من معنى"، وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يتحرك لنا ساكن كي نغير ما نحن عليه. إننا الحقيقة الخفية في هذا العالم .. الأساس الذي قامت عليه أية حضارة جيدة. إننا نمثل الأغلبية العظمى المتثائبة التي لا تؤمن إطلاقًا أن تغيير حياتنا وتحولنا نحو الأفضل من الأمور المهمة التي تستحق حقًّا كل هذا

الجَهد المطلوب من جانبنا. لقد كنا دومًا في هذا العالم، وسوف نظل لفترة طويلة بعد وصول هؤلاء الأشخاص الطامحين إلى تطوير ذواتهم إلى هدفهم وبُغيتهم.

الأكثر من ذلك، أننا لا نملك ما يدعو إلى الخجل. إننا نمثل أفضل ما في هذا العالم المليء بمظاهر الترف والبهرجة. فنحن - على الأقل - لا نغير على الدول المجاورة ولا ننشئ أحزابًا سياسية متناحرة. ولم نخترع تقاليع غريبة كتلك التي يتهافت عليها الشباب هذه الأيام، ولم نكن حتى مخترعي التليفون المحمول. فعلام كل هذا الاستياء والانزعاج؟! إن كل ما نريده هو الحياة الهادئة، وجلّ ما نأمل فيه هو أن نجد لقمة العيش الطيبة والحياة الرغدة، أو قد نذهب لما هو أبعد من ذلك، فنحلم أن ننطلق في سيارةٍ فارهة على الطريق السريع. ولكننا - مع ذلك كله - لا نملك أي استعداد لتطويع قوانين الطبيعة والأخذ بالأسباب التي تحقق لنا ما نأمله. إننا نفضل الانسياق التام مع التيار العام.

ولولا أن هذا العالم قد خُلِق لنا، لكان قد أصبح أكثر كآبةً وانعزالاً. فنحن - على سبيل المثال - المسؤولون الوحيدون عن إجراء جميع المحادثات الشيقة في أي حفل عشاء. فالأقوال المأثورة المفعَمة بالحيوية، والنوادر التي تتشدق بها الألسن في أحاديث القيل والقال، والملاحظات الحاذقة، كلها أمور اخترعها أناس أمثالنا، أناسٌ جُلُّ ما يشغلهم هو أن يحصلوا على أقصى استفادة بأقل مجهود ممكن. إن لم يكن هذا العالم قد خُلِق لنا، لكان من المنتظر أن يكون هذا العالم من أجل الأشخاص الذين يدربون أنفسهم على التطوير ويتكبدون كل عناء ومشقة في سبيل بلوغ هدفهم المنشود، ويفتحون أذرعهم مرحبين بالتغيير والأفكار المرعبة المتشابهة. أما نحن، فلا نكترث بأي من تلك الأمور. إن لم يكن هذا العالم قد خُلِق لنا، لكان سيقع صريع الملل والرتابة.

وبالطبع، فذلك ليس سببًا للشعور بالرضا. وعلى غرار ما حدث مع الديناصورات وغيرها من الكائنات الأخرى، لو فشلنا في التكيف مع تغيرات الدهر وتصاريف القدر، فسيكون الفناء والانقراض مصيرنا المحتوم. سنندثر ولا يبقى من آثارنا شيء؛ وقد يتخذ "ستيفن سبيلبرج" منا موضوعًا في أحد أفلامه، فمن يدري؟! علينا أن نتعلم كيف نظل مصدر جذب وتشويق لجميع من حولنا، وكيف نحافظ على ثروتنا وصحتنا، وعلينا أن نتعلم أيضًا كيف نناضل ونجاهد في الكتمان في ظل إيماننا القوي بأننا قد ننقل تلك الجينات الوراثية إلى الأجيال القادمة التي تمشي متراخية وبخطى متثاقلة في ركبِنا.

هذا هو السبب الحقيقي الذي دفعني إلى تأليف هذا الكتاب. إذا أردت ثلاث خطوات سهلة لتصبح شخصًا خرافيًا لا مثيل له وتحيا حياةً رائعة، فعليك أن تطوي صفحات هذا الكتاب على الفور. فهذا ليس بالكتاب المناسب (مع العلم أن لك مطلق الحرية في شراء العديد من النسخ لأصدقائك). فهذا كتابٌ من كتب تطوير الذات، ولكنه موجهٌ للأشخاص الذين ينأون بجانبهم عن اتخاذ أية خطوات على الإطلاق .. إنه كتاب لتطوير الذات موجهٌ للأشخاص المتكئين - في تكاسل - على الأريكة .. إنه الكتاب الذي سوف يخبرك عن كيفية حصاد النتائج المترتبة على أن تكون شخصًا أفضل، دون أن تزعج نفسك بالعبء غير الضروري في أن تكون أفضل بالفعل.

لا داعي حتى أن تقرأ هذا الكتاب. كل ما عليك أن تشتريه وتحتفظ به في مكان ظاهر ليكون أمام عينيك دائمًا تقتبس منه بريق أن تكون أفضل وأسعد حالاً وأكثر رغبةً وإقبالاً على الحياة. وعن صفحات هذا الكتاب، فسوف تلاحظ أنه قد تمت معالجتها بشكل جديد وغير تقليدي على الإطلاق يسمح بتذكر المادة المعروضة وحسن استيعابها واستخلاص العِبر منها. تفيد هذه الطريقة في انعكاس المعلومة الواردة في الصفحة على الجو العام المحيط بالقارىء، مما يعطيه فرصة أكبر للتركيز ومواصلة الفكرة وهو مستلق في حالة استرخاء تام.

إذا أردت اغتنام هذه الفرصة المميزة، فثمة عدد من الصفحات الخالية في نهاية الكتاب. حقًا، إنها تزيد من حجم الكتاب وتجعله يبدو أكثر سمكًا عند وضعه في المكتبة، ولكن في الواقع لها ميزة أخرى حيث إن هذه الصفحات ستُشعِر من حولك أنك بصدد قراءة شيء، سواء أكنت على الشاطئ أو في إحدى المواصلات العامة. كما أنها ستمنحك الفرصة لإعطاء عينيك قسطًا من الراحة والتفكير في أمور أخرى تشغل بالك.

والآن، ستبدأ رحلتنا في هذا العالم الجديد. العالم الذي سنخفي فيه كل ما يعترينا من جبن بكل إتقان وحنكة. وفي أثناء توغلنا في هذا العالم، تذكر مقولتنا الشهيرة، واهمس بها إلى نفسك، واكتبها على بطاقة واحتفظ بها في مكانٍ ظاهر، أو على باب الثلاجة أو لوحة أجهزة القياس في السيارة.

هل هممت بتدوين هذه المقولة؟ إنها المقولة الشهيرة التي سنسير في ضوئها، وهي:

"أي شيءٍ في هذه الحياة يحتمل الزيف والتلفيق".

(ولكن، هذا باستثناء النفاق على ما أعتقد؛ فمن الصعب تزييف النفاق، وكذلك الأمر بالنسبة لطبيعة الشعر، فالواقع يقول إنه قد يكون للشخص شعر أجعد أو ناعم، ولا يمكن لأحد تزييف ذلك. وباستثناء هذين المثالين، فلا يوجد ما يخالف مقولتنا السابقة أو يتعارض معها.)

هل أنتم على استعداد الآن؟ حسنًا، فلنبدأ رحلتنا!

الفصل الأول

الحياة رحلة من البحث والاستكشاف

في عالم اليوم، ليس من السهل على الإطلاق أنَ تكون شخصًا كسولاً. وربما تعارضني إن أجزمت أن هذه هي حقيقة كل عصر تقريبًا؛ فالأغلبية العظمى من الناس لا تدرك كمَّ المجهود المبذول لكي يكون المرء شخصًا متكاسلاً. إن الأمر يتطلب الكثير من الصبر والمثابرة والممارسة والرفض الشديد للاستماع لصوت العقل، ومخالفة الواقع الذي يفرض على كل إنسان أن يكون سريع الحركة.

واليوم، لا يزال كل شخص منا يسعى إلى أن يكون الأفضل، سواء في الشكل أو في إخبار الحقيقة وقول الصدق، أو حتى في التحلي بصفات الملائكة.

ذات مرة، عندما كنت شابًا صغيرًا مفعمًا بالحيوية والنشاط، خرجت باحثًا عن السر نحو حياة أكثر مثالية. فسافرت إلى أمريكا الجنوبية، ثم إلى شيلي، حيث صحراء "أتاكاما" شديدة الحرارة بأرضها الشاسعة مترامية الأطراف. وهناك، سمعت عن رجل حكيم يعيش في الجبال. "لا يمكن أن تفوت فرصة مقابلته والتعرف إليه" هذا ما قاله لي السكان المحليون وقتها مشيرين إلى ممر ضيق بين الصخور البيضاء يؤدي إلى أجراف شديدة الانحدار تلوح في الأفق. وقد وصفوه بأنه رجل عجوز ذو لحية، وربما سأجده واقفًا على قمة إحدى الصخور يقذفني بثمار المانجو عندما أتسلق الجزء شديد الانحدار في تلك الأجراف.

وسألت نفسي وقتها: "من أين له بثمار المانجو وسط هذه الصحراء القاحلة؟" وإذا بالسكان المحليين يتجنبون الإجابة عن سؤالي ويحملقون في الرمال ويرسمون عليها أشكالاً بأصابع أقدامهم.

ثم إذا بهم يقولون: "إن تصرفات ذلك العجوز القاطن وسط الجبال غريبة وغير مفهومة".

وعلى الفور، ما كان مني إلا أن حملت حقيبة ظهري وارتديت سترة واقية وتوجهت نحو التلال. كان الطقس حارًا وجافًا، ولكن هذا هو المتوقع في الصحراء. وعندما بلغت الجزء شديد الانحدار في هذه التلال، سحبت السترة الواقية فوق رأسي؛ وذلك لتحميني من ثمار المانجو، فلا أظن أن أحدًا قط يحبذ فكرة أن يُقذف بثمار المانجو على أم رأسه! ولكن ما إن واصلت تسلقي لأعلى حتى لاحظت أن الرجل العجوز لم يظهر بعد. فكيف لي أن أعثر على عجوز الجبال ما لم يبدأ هو بشن الهجوم عليَّ بثمار تلك الفاكهة الاستوائية؟ وكانت هذه هي الحكمة الأولى التي علمني إياها ذلك العجوز:

"لقد كنت أتوقع الأسوأ، وحيث إن الأسوأ لم يحدث، فإني أشعر بالإحباط. إنني أنا من أدخلت نفسي في دائرة الرعب والخوف هذه."

في الواقع، كانت هذه هي الحكمة الثانية. أما الأولى، فكانت:

"إذا كنت ستتسلق أكثر أجزاء الجبل انحدارًا، واضعًا على رأسك سترة واقية، فاعلم أنك لن تستطيع أن تحدد وجهتك وتستكشف دربك، وبالتالي فليس من الغريب مطلقًا أن تصطدم قدمك بإحدى الصخور."

لذا فقد أزلت السترة الواقية من فوق رأسي. وبينما كنت أحاول النهوض وأدلك قدمي، شاهدت أمامي سلسلة من الصخور وإذا برجل عجوز أشعث الرأس رثِّ الثياب، يجلس هناك واضعًا ساقًا فوق الأخرى ومغمضًا عينيه. وإذا بي ألهث وأجثو أمام قدميه، من باب التوقير والإجلال من جانب، ومن شدة التعب الذي اعتراني من جانب آخر؛ من تسلق الجبال طوال هذه المسافة في هذا الطقس القاسي الذي لم يبعني فيه أيٌّ من الأهالي ولو زجاجة ماء

واحدة! وعندما هدأت وتنفست الصعداء، فكرت في هذا الدرس الجديد المهم من دروس الحياة:

"إذا لم نخشَ الفواكه الاستوائية التي قد تسقط على أمهات رءوسنا، فسوف نتمكن من رؤية الثروات التي أمامنا واستغلالها على النحو الأفضل."

هذا ما كتبته بإصبعي على الرمال خشية أن أنساه فيما بعد.

لم أكن متأكداً من الكيفية التي سأقترب بها من هذا العجوز القاطن وسط الجبال. كانت عيناه لا تزال مغمضتين وأنفاسه عميقة ومنتظمة، وهو ما كان شائعًا بين حكماء الجبال - وأيضًا عازفي البوق. ومددت يداً مرتعشة خائفة، وربتُّ بها على طرف مئزره.

وإذا بالرجل العجوز يرفع رأسه ويفتح عينيه اللامعتين المتلألئتين كأكواب الماء الصافي الرقراق، ويسألني قائلاً: "مَنْ أنت؟"

أجبته وأنا أمرغ شعر رأسي عند قدميه: "إنني خادمك المطيع جئت قاصدك".

سألني بحزم وشدة وهو يركل رأسي: "كيف صعدت إلى هنا وتسلقت هذا المنحدر الشديد دون أن أسمعك؟"

دهشت لأسلوبه المنفعل، ولكنني لم أصدم منه؛ فالمعروف عن الحكماء من هذا القبيل أنهم عادةً ما يكونون سريعي الغضب. فقد حدث أن قام صديق لي بزيارة أحد الحكماء في أدغال "لاوس"، وما كان منه إلا أن خرج عن شعوره وفقد أعصابه عندما هزمه صديقي في لعبة الطاولة، فضرب صديقي على رأسه وكتفيه بعصا من الخيزران، وقذفه بالحجارة أيضًا. وقد علَّق صديقي وقتها بصوت حزين على ما حدث له في ذلك اليوم، فقال: "في بعض الأحيان، يرى الحكماء أنه من الضروري أن نمر بتجربة أليمة حتى نتعلم الدرس".

عندئذٍ، أثار في ذهني درس آخر من دروس الحياة وذهبت أرسمه على الرمال بسبابتي:

"عليك أن تسعد إذا كان لُعلمك قدمان من طين. فماذا عساهما أن يفعلا بك إذا تلقيت منهما ضربة على أم رأسك؟!"

ولحسن الحظ، فقد توقف الرجل العجوز عن ركل رأسي. وإذا به يستلقي للوراء مغمضًا عينيه من جديد. والتمست رضاه مرةً أخرى، فقلت له: "سيدي، أنا خادمك المطيع".

وما كان منه إلا أن أجابني: "إذا كنت خادمي المطيع فعلاً، فاذهب وراقب الوضع جيدًا حتى لا يصل إلى هنا المزيد من الزائرين، فلديّ من ثمار المانجو ما يسد حاجتي لمدة أسبوع كامل، ولا أبغي أن أتلفها".

"ولكن سيدي، أنا هنا كي أتلقى عنك وأسمع منك"، هذا ما قلته. فحاول أن يضربني على رأسي من جديد، ولكنني قيدت رجله وصرعته على الأرض. كان موقفًا غير مسؤول بالطبع، ولكن ما كنت أقصد منه شيئًا على الإطلاق أكثر من الرغبة في مواصلة التدوين والتوقف مؤقتًا لكتابة الدرس التالي على الرمال:

"السماء لا تمطر حكمًا كثمار المانجو، وأحيانًا يكون لزامًا على المرء أن يصارع من أجل استقاء الحكمة التي يريدها، ووضعها في نصابها الصحيح. لا تخف أن تجاهد من أجل الحكمة التي تبتغيها: فإذا كانت الحكمة تجلس كهذا العجوز فوق قمة أحد الجبال، وقد وضع ساقًا فوق الأخرى، واستمر على هذه الحال لفترة من الوقت، فلا شك أنها حكمة تعاني من سوء التغذية ويمكن صرعها بسهولة."

"حسنًا حسنًا، إذا تركتني، فسوف أجيب عن أسئلتك". هكذا قال الرجل العجوز قاطن الجبال بصوتٍ مكتوم، وجلس كلٌ منا في مواجهة الآخر، وسرى بيننا نسيم هادئ تلمسنا أثره، وعلى الفور سألته: "كيف السبيل للإنسان منا

أن يكون رجلاً حكيمًا يقطن الجبال؟" وإذا بالرجل العجوز يومئ إيماءةً تنم عن شيء من عدم الرضا، ويقول وهو يفرك لحيته: "الأمر لا يتطلب الكثير". وإذا به يحكي هذه القصة:

"كنت شابًا مثلك تمامًا، أنشد المعرفة وأسعى وراء التنوير. وذات مرة، تقابلت مع رجل يدعى "كارلوس كاستانيدا"، وإن كان ما أتذكره كلما عدت بذاكرتي إلى الوراء أنه ربما كان عازف القيثار "كارلوس سانتانا". كان الجميع يقولون عنه أنه رجل على قدر كبير من الحكمة، وكان يعزف على قيثارة أنيقة. أعطاني قطعة من الصبَّار لأمضغها. وفكّرت وقتها: إذا كان هذا الرجل حكيمًا كما يقولون، فلماذا لم يزل الأشواك عن قطعة الصبَّار قبل مضغها؟! ولكن كنت صغيرًا وقتها، وسرعان ما قبلت عرضه على الرحب والسعة.

وعليه، فقد أكلت قطعة الصبَّار ومررت بأحداث أخرى غريبة. لقد تكونت لديَّ رؤية خاصة فيما يتعلق بتصاريف الدهر وفكرة الخلود. وقمت بتدوين ما توصلت إليه على صفحة الرمال؛ لأنني علمت وقتها أني لن أتذكرها لاحقًا إن لم أحرص على تدوينها بهذه الطريقة. ولكن، لعلك تعلم الميزة المفقودة في فكرة الكتابة على الرمال. إنك لن تستطيع – بأي حال من الأحوال – أن تأخذها معك.

وبعد أن انتهت هذه التجربة، فإذا بأمر آخر يحدث لي ويعتريني من آنٍ لآخر. إنه شيءٌ أشبه بالعفريت حاد الأسنان، يزورني في هيئة الكلب سنوبي".

وهنا، لم أجد بدًا من أن أقاطعه متسائلاً: "سنوبي؟".

فأجابني: "نعم سنوبي. لم يكن كلبًا بريئًا كما يبدو. لقد كان يطاردني، وأهرب منه. ففررت من أمريكا الوسطى. وأخذت أجري وأجري وهو في أعقابي مباشرةً، حتى وصلت إلى هنا. وفي أثناء ذلك – على حد علمي – ظننت أن

قطعة الصبَّار جفَّت. واختفى الكلب سنوبي. ولكنني كنت منهك القوى تمامًا، لذلك قررت أن أغفو قليلاً. وبما أن الإيجار ليس رخيصًا في شيلي كما تتخيل، لذلك جئت قاصداً هذه السلسلة من الصخور، وها أنا ذا أعيش هنا من وقتها. ووجدتها مريحة في كل شيء، باستثناء عندما تمطر وعندما تضطر الحيات ذات الجرس إلى المجيء للبحث عن الدفء ومحاولة الالتفاف على نفسها بجانبي في الليالي الباردة".

وسألته: "هل كثيراً ما تمطر؟".

فأجابني بالنظرة نفسها التي تنم عن اعتزازه الشديد بنفسه: "لم تمطر كثيراً على الأقل خلال السنوات العشرين الأخيرة".

وكررت سؤالي في إلحاح: "ولكن، كيف للمرء أن يكون حكيمًا؟" وإذا به يهز كتفيه بما ينم عن الشك وعدم التيقن من الإجابة: "حسنًا، إن الأمر .. لقد مضى على وجودي هنا في أعالي الجبال فترة ليست بالقصيرة. إنني أعيش هنا آكل البيض من أعشاش النسور، ثم أجلس أتساءل عما يجب أن أفعله لاحقًا. وفكرت أن أذهب إلى "باتاجونيا" لتأليف كتاب عن السفر والترحال، أو ربما إلى "نيويورك" لمحاولة الكتابة عن الكوميديا الغنائية، عندما سمعت عن اضطراب سياسي يجتاح المنطقة هناك. وقد جاءني ثلاثة من السكان المحليين حاملين معهم سلة مليئة بالطعام، الذي كان من بينه كرة كبيرة من جبن اللامة. وكم أعجبني هذا النوع من الجبن!".

وإذا بي أقول له: "حقًا؟ إن لها رائحة نفّاذة جداً."

"لا يا بني على الإطلاق، يجب أن تعتاد حب الجبن وتتذوقه. على أي حال، فقد أعطوني هذا الطعام نظير أن أمنحهم بعضًا من الحكمة التي من المفترض أنني أمتلكها. وأخبرتهم أنني في حقيقة الأمر لا أمتلك هذه الحكمة، وعرضت عليهم أن أنشد لهم أول بيتين من قصيدة (التنين السحري)، وقد أومئوا

برءوسهم موافقين، ففعلت. وبعد ذلك، تركوني وهم يلكزون بعضهم بعضًا. ثم أدركت أنهم لا يتحدثون الإنجليزية. ولكن لم يكن هذا بالشيء المهم؛ فكل يوم كان يأتي العديد من سكان القرى يقصدونني بالزيارة، حاملين معهم سلال الطعام، ويجلسون يستمعون إلى القصيدة نفسها، أو أحيانًا كنت أنشد لهم شيئًا آخر."

أومأت برأسي لما سمعته من حكايته، وبينما كنت كذلك كتبت هذا الدرس الآخر من دروس الحياة على الرمال:

"في بعض الأحيان، قد لا يكون من الضروري أن تتعلم الحكمة من فم حكيم. وقد يكفي فقط أن تبدو عليك أمارات الحكمة وتعتليك بعض ظلالها. وحتى الحكمة أحيانًا لا تتطلب أكثر من مجرد التفوه بكلمات جوفاء لا معنى لها ولا طائل وراءها."

ولكي أكون صادقًا، فقد بدأ شيء من التعب يعتريني في هذه الأثناء من تدوين تلك الدروس والعِبر على الرمال، وبدأت أشك في حكمة أن أستمر في سماع المزيد من هذا الحكيم قاطن الجبال. وتأهبت للرحيل. ولكن، إذا بي أقول له: "شيءٌ أخير.. لماذا ثمار المانجو على وجه التحديد؟"

قال الرجل العجوز وهو يحك أنفه وتطرف عينه: "لا بد أن يكون لكل إنسان وسائله في التحايل، فقد كان هناك مندوب مبيعات يسافر مرة كل أسبوع لتسليم البضائع التي معه، وجاءني عبر طريق آخر كي لا يراه الأهالي، وحاول أن يقنعني أن استبدل المانجو بثمر البابايا؛ فهو أغلى من المانجو، ولكن هرسُه أسهل. علاوةً على أن بإمكانه أن يعطيني بابايا معلَّبة، تصلح للتخزين لفترات أطول".

أومأت برأسي وبدأت رحلة نزول هذه الطريق الطويلة المؤدية إلى أسفل الجبل. واعتراني شعور سيئ لأنني عرفت ما سوف يحدث في اللحظة القادمة.

كنت محقًا، لقد كان يتمتع بذراع قوية قلما وجدتها في رجل عجوز أشعث مثله، فإذا به يضربني على أمٍّ رأسي بأربع من ثمار البابايا تحولت جميعها قبل أن أبلغ منتصف الطريق المنحدر إلى ما يشبه البطاطا. وقررت في نفسي أنه ليس بوسعي أن ألومه في ذلك. فمَنْ منا يحب أن يوضع في هذا المأزق؟ ولكن تمنيت لو أنه كان قد أخرج ثمار البابايا من عبواتها أولاً!!

النهاية

كم تمنيت أن تكون هذه هي نهاية القصة، ولكنها للأسف ليست كذلك. عشت هائمًا على وجهي بضع سنوات، أتنقل بين أنحاء العالم على غير هدى، أنشد الحكمة بطريقة أكثر عشوائية في كل مرة، إلى أن حدث ذات يومٍ وأنا جالس على أرجوحة على قارب لصيد الحبّار تهزه رياح قوية في بحر الصين الجنوبي، أن حدثت نفسي قائلاً: "سحقًا لذلك، سوف أعود إلى وطني. فالدفء حيث أعيش هناك، وهناك أستطيع أن أستمتع بمشاهدة التليفزيون وممارسة أشياء أخرى ممتعة".

وإذا بي أشتري تذكرة سفر، ولكن بينما أنا واقف في مكتب حجز التذاكر بالمطار، في انتظار موظف الاستعلام للنداء على رحلتي، وقعت عيناي بالصدفة على رف الكتب الأكثر مبيعًا. وكان على هذا الرف كتاب موضوعُ على غلافه صورة فوتوغرافية لرجل. وإذا بي أقول: "لحظة.. إنني أعرف هذا الرجل!"

نعم، كنت أعرفه على الرغم من أن المرة الأخيرة التي رأيته فيها كان أقل نضارةً وأكثر اتساخًا. وكان عنوان الكتاب هو Go Tell It on the Mountain، وعلى غلافه كان هناك ملصق أحمر صغير على شكل نجمة، كُتِبَ عليه الكلمات التالية Over one million copies sold التي تعني بالعربية "بِيعت أكثر من مليون نسخة".

وكـان للكتـاب عنوان فـرعي: Ten Lessons Learnt from a life more perfect الذي يعني بالعربية "عشرة دروس مستفادة من حياة أكثر كمالاً". وبالكاد حاولت ألا أفتحه، ولكنني فتحته ووجدته يستهل حديثه في الفصل الأول بهذه الكلمات:

"إذا لم نخشَ الفواكه الاستوائية التي قد تسقط على أمهات رءوسنا، فسوف نتمكن من رؤية الثروات التي أمامنا واستغلالها على النحو الأفضل."

وفجـأة، طويت الكتـاب وانطلقت لاحـقًـا برحلتي، وتذكـرت هـذا الدرس الأخير، الذي لم أكتبه هذه المرة على الرمال، ولكنه ظل محفوراً في ذاكرتي:

"إن لم تكن لديك حكمتك الخاصة، فاعلم أن قراءتك لكتب تطوير الذات لن تفيدك في شيء. فلماذا لا تكتبها إذن بدلاً من أن تقرأها؟"

الفصل الثاني

البحث عن الذات

إنَّ الرجل الحكيم الذي يعيش فوق قمم الجبال لا يشكل أهميةً لنا ولا يخدم أيًا من أهدافنا، إنه حتى لا يمثل أهميةً لأي إنسان على الإطلاق، والأكثر من ذلك أنه لا يكون فقط عديم الجدوى بالنسبة للأشخاص المتكاسلين، وإنما يكون النموذج الأكثر سوءًا لهم. حتى إن كان حكيمًا حقًا، وليس مجرد إنسان أخرق يعيش في البرِّية في معزل عن المجتمع وعرضة لمخاطر الطبيعة، فسوف يظل العثور عليه سببًا لإثارة المتاعب؛ حيث إنك لا تنفك أن تصل إليه حتى تعتريك رغبة شديدة في العودة إلى ديارك. ولحسن الحظ، فلديَّ قصة قريبة مما نتحدث عنه وأظنها ستخبرنا بكل ما نحن في حاجةٍ إلى معرفته.

استمع معي إلى هذه الحكاية. إنها حكاية بسيطة، أو هكذا يمكن أن نعتبرها، ولكنها تتحدث إلى ما في مكنون أنفسنا. والأكثر من ذلك أنها تجسد الفلكلور القديم والحِكم المستقاة من الثقافات المندثرة، التي على ما أعتقد قد أصبحت شائعة للغاية هذه الأيام.

إنها قصة مقتبسة من واقع شعوب جنوب إفريقيا الأصليين. لقد أطلق على هذه الشعوب العديد من الأسماء على مر العصور، ولكن بصرف النظر عن أسمائهم المختلفة، فهم يمثلون أقدم الشعوب لقارة قديمة للغاية، ولديهم مقدرة جيدة على الحكم على الأمور بعقلانية.

لقد أخبرني بهذه القصة أخ لي في الإنسانية هزيل البنية، يرتدي عباءةً من جِلد الظبي، كان يجلس بجواري في أحد الأتوبيسات العامة. ولم يكن يرتدي أي شيءٍ آخر غير تلك العباءة التي أثارت اشمئزازي وجعلتني لا أقوى على مقاومة الذهاب إلى دورة المياه. لقد تعلمت من هذا الرجل الهزيل الطاعن في السن هذه الحكمة، وهي حكمةٌ شاركتها مع الكثير من الأشخاص على

مدار سنوات عمري. وقد أشاد بها جميع من سمعها مني، وأتمنى أن يكون الحال كذلك معك.

قصة البيضة

منذ عدة قرون مضت، عندما كانت الحيوانات لا تزال تغطي سطح البسيطة كله، والبشر يتجولون ويجوبون أرجاءها أحرارًا غير متقيدين بقيود، كان هناك شاب يدعى "إكسام". وكان صيادًا ماهرًا، فكان في مقدوره ملاحقة نعامة عبر سهل مليء بالحصى، وهو يضع على عينيه منزره وهو الأمر الذي كان يبهر الفتيات. كان يساعد الآخرين ويتمتع بنظر ثاقب وخفة الحركة. وعندما يحل المساء، كان يظل مستيقظًا ويضم شفتيه آخذًا أنفاسًا قصيرةً متلاحقة. وفي تلك الأثناء، حدثته أمه قائلة: "ماذا تفعل هناك؟" فأجابها: "إنني أجرب أسلوبي في النفخ".

وردت عليه أمه بقولها: "حسنًا، ضع يديك فوق السجادة؛ حيث يمكنني أن أراهما".

كان حلم "إكسام" أن يصطاد الفيل الصحراوي؛ حيث كان يعتقد أن معيار الرجولة الوحيد للصياد الشاب أن يتعقب أثر الفيل الصحراوي فائق القوة ويقوم باصطياده.

هل يبدو هذا الأمر مألوفًا لك؟ هل سبق أن ظللت مستيقظًا طوال الليل تحلم باصطياد الفيل الصحراوي؟ هل لا تزال حريصًا على أن تبقى مستيقظًا وتضم شفتيك تاركًا فجوة صغيرة بينهما كي تأخذ من خلالها أنفاسًا قصيرة متلاحقة؟ إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لك، فمما لا شك فيه أن الفيل الصحراوي الذي نتحدث عنه في قصتنا هذه سيكون شيئًا مختلفًا تمامًا بالنسبة لك. ودعنا نصرح بشيء دون أن نفسد نهاية القصة: إن الفيل الصحراوي ما هو إلا كناية. فلعلك تقيم في مكان بعيد كل البعد عن الصحراء. وربما يكون الفيل

بالنسبة لك عبارة عن سيارة ألمانية فارهة. أو لعله يمثل لك النجاح والشهرة وإعجاب الأقران بك. في الواقع، فإن لدى كل منا العديد والعديد من الفيلة الصحراوية في حياته تمامًا كالحال بالنسبة لأنواع الجبن، أو لعلها أكثر منها.

ذات يوم، حضر بعض الشباب الأكبر سنًا إلى "إكسام" وقالوا له: "سنخرج في رحلة صيد؛ لتعقب أثر الفيل الصحراوي، وسوف تستمر هذه الرحلة لعدة أيام وليالٍ، ونريدك أن تكون معنا. فأنت صياد ماهر ولديك رمح عاصف، فضلاً عن أن أحدًا منا لا يعلم متى سيصادف في طريقه نعامةً تسير عبر سهل مليء بالحصى."

لم يتمالك "إكسام" نفسه من الفرح وغمرته سعادة لا حدود لها، فأسرع إلى أمه يستأذنها في الذهاب، وإذا بأمه ترفض رفضًا قاطعًا.

فرد عليها "إكسام" قائلاً: "حسنًا، في هذه الحالة هل تسمحين لي بقضاء الليلة مع صديقي 'إكساب' في كهف أسرته؟"

فردت أمه بقولها: "لا بأس، ولكن إذا عدت في غضون شهر، ساحبًا خلفك فيلاً صحراويًا، ستكون قد وقعت في مشكلة كبيرة، يا بني."

ومع ذلك، فقد أصرَّ "إكسام" على الانضمام إلى الشباب الأكبر سنًا وبدءوا رحلتهم لتعقب الفيل الصحراوي فائق القوة. وقد سافروا خفافًا، كحال الناس في تلك الأيام، وكحالنا نحن إذا كنا مثلهم نسافر دون أن يكون لدينا جيوب نضع فيها أغراضنا. ولكن، كان كل ما حملوه معهم هو بيض النعام، الذي كانوا يفرغونه ويملئونه بالماء ثم يسدونه مرةً أخرى بعصي صغيرة وقطع من جلد الحيوانات. وفي الواقع، فإن جلود الحيوانات كانت من الأمور التي لها أهمية كبيرة في قبيلة "إكسام". فنحن نستخدم البلاستيك، وهم كانوا يستخدمون جلود الحيوانات. وعلى طول الطريق، وعبر الأراضي الرملية الشاسعة، كان كل منهم يقوم بدفن بيض النعام الخاص به في الرمال، بواقع بيضة يوميًا، ويضعون علامات صغيرة في الرمال يستدلون بها.

هل ما يحدث شبيه بنمط الحياة التي تعيشها؟ هل تترك خلفك أشياءً مهمة، بل ربما أشخاص مهمين، متوقعًا أن تلتقي بهم مرةً أخرى في يوم من الأيام؟ هل تفعل ذلك حقًا؟ أي نوع من العلامات سوف تستخدم؟ في الحقيقة، لقد فكرت كثيرًا في الأمر، ولم أهتدِ إلى ما يؤكد جدوى استخدام تلك العلامات في هذه القصة الرمزية. وعلى أية حال، فلم يكن أمامي إلا أن أترك تلك العلامات كما هي؛ لأنها - كما سنرى - تمثل جزءًا مهمًا في القصة.

وحيث إنه ترك منزله في عجالةٍ، فلم يُحضر "إكسام" معه سوى قشرة بيضة واحدة، بيضة كبيرة للغاية، وقام بدفنها أسفل إحدى أشجار الباوباب الضخمة".

مضى على غياب الشباب وقت طويل، يطئون بأقدامهم فوق رمال صحراء إفريقيا الملتهبة، ولم يتوقفوا إلا عندما وصلوا إلى البحر، وحتى في تلك الأثناء لم يمكثوا سوى لبرهة من الوقت قبل أن تتولد لدى البعض فكرة الاقتراح بأخذ طريق العودة.

وذات يوم، في طريق العودة، رأوا آثار أقدام الفيل الصحراوي الضخم، وأخذوا يقتفون أثره، ومشوا لمسافات ومسافات، متتبعين آثاره. وبعد ذلك ببضع أيام، أثار أحد الشباب بعض الجلبة وهو يتنحنح ثم ربَّت على كتف "إكسام" قائلاً: "هل أنت متأكد من أننا نسير في الطريق الصحيح؟" وإذا بهم جميعًا يتوقفون وينظر كل منهم إلى الآخر.

رد عليه "إكسام" بنبرة فيها شيء من الدفاع عن النفس: "ماذا تعني؟"

فأجابه قائلاً: "أعني هل نحن متأكدون حقًا من معرفتنا بالجانب الذي يمثل الحافر الأمامي والآخر الذي يمثل الحافر الخلفي في آثار أقدام ذلك الفيل الصحراوي؟"

نظر كل منهم إلى الآخر من جديد، ثم اتجهوا جميعًا بأنظارهم إلى "إكسام". ونظر "إكسام" إلى آثار الأقدام وقال في بطء: "حسنًا.." ثم سكت لأنه لم يكن يعلم ماذا عساه أن يقول حقًا.

وسأله أحد الشباب بنبرةٍ حادة: "هل سبق أن شاهدت من قبل آثار أقدام الفيل الصحراوي؟"

وعقّب "إكسام"، الذي شعر أن ثمة شخصًا آخر يقود الطريق غيره، وهو ينظر ببطء إلى الرمال، "حسسسنًا.."

وأعقب ذلك مشهد سيئ، لم يخلُ من بعض الصفع والركل والضرب، وفي النهاية اتخذوا طريقهم من جديد للعودة إلى الديار، وإذا بأحدهم يصرح على استحياء: "لعلنا نستطيع تتبع آثار الفيل البري في طريق العودة". وسعد الجميع أنه لم يكرر قوله هذا.

هل حدث هذا الأمر لك من قبل؟ هل قمت بتتبع الفيل البري في الغابات والصحاري، فقط لتكتشف أنك بمجرد أن توقفت عن التفكير فيه، أصبحت لا تعلم وجهتك الحقيقية: هل أنت ذاهبٌ أم آتٍ؟ نعم! وهل خذلك أصدقاؤك فيما بعد؟ لا! حسنًا. لقد نجحت في اختيار أصدقائك بحكمة.

لذلك، فقد ساروا في الصحراء الواسعة مترامية الأطراف، ومروا بالسهل المليء بالحصى، و"إكسام" يقسم أنه في إمكانه أن يحدد أثر أقدام النعامة الصحراوية ذات الثلاثة حوافر. وأخذ يبحث ويدقق النظر وكان على وشك أن يقول شيئًا، ولكنه لاحظ أن جميع الشباب كانوا ينظرون إليه نظراتٍ غير مريحة بالمرة، لذلك لم يكن منه إلا أن آثر السكوت ولزم الصمت من جديد.

وبين لحظة وأخرى، كان الشباب يقفون عند كومة من الحصى أو عند قطعة خشب مثنية، ويزحفون فوق الرمال لاستخراج البيضة التي قاموا بدفنها. وفي كل مرة، كان الواحد منهم يتجرع كمية الماء الموضوعة في البيضة كلها، أو

يتقاسمها مع صديق له. وما من أحدٍ تقاسم مياهه مع "إكسام". واقتات "إكسام" على قطرات الماء التي اعتصرها من أجسام السحالي الصغيرة والعقارب، وقد كان هذا جيدًا، ولكن لم يكن يماثل بالطبع تناول الماء البارد من قشرة البيضة. وفضلاً عن ذلك، فلم يكن من الممتع في شيء الحصول على الماء من عقرب. فعلى الرغم من أن العقارب لم تكن تتملص أو تتلوى كثيرًا مثل السحالي، فإنه كان يعتريها أحيانًا مزاج سيئ. وأخذ "إكسام" يفكر في أمه ويتخيلها وهي تنتظره عند عودته إلى الكهف، وتمنى لو لم يخرج في هذه الرحلة من الأساس.

بعد ذلك، وبمجرد أن وصلوا إلى أكثر المناطق جدبًا وارتفاعًا في الحرارة في الصحراء، اكتشفوا أن عاصفة رملية هائلة قد عصفت بهذه الطريق، طامسةً كل المعالم الموجودة على الأرض الرملية. اختفت جميع العلامات، ولم يعد في استطاعة أحد العثور على بيضة النعامة الخاصة به؛ لذلك فقد واصلوا السير لمسافات طويلة، وأخذت حرارة الشمس تزداد حدةً وارتفاعًا يومًا بعد يوم.

وذات صباح، شاهد "إكسام" على مسافةٍ غصون وفروع شجرة باوباب. لقد كانت تلك الشجرة التي دفن البيضة الخاصة به عندها. وأخذ يقفز بقدميه فوق الرمال الملتهبة الساخنة حتى وصل إلى الشجرة فجثا على ركبتيه وأخذ يحفر ويحفر حتى استخرج البيضة الكبيرة للغاية التي جلبها معه من كهفه. ولكن، ما أن رفع البيضة حتى لاحظ أنها أخف وزنًا مما كانت عليه من قبل، وسرعان ما أدرك السبب: فقد تسرب الماء عبر السدادة التي صنعها من جلود الحيوانات والعصا. وبالتالي، فقد تسرب كل الماء الموجود في قشرة البيضة الضخمة إلى رمال الصحراء.

إنني أتخيل لو أن هذا الأمر حدث لك! لقد حدث لي. ألم يحدث لنا جميعًا موقف مماثل أعتقد أننا جميعًا مررنا بذلك. ولكن انتظر؛ فهذه هي النقطة الأهم. انظر ولاحظ كيف عالج "إكسام" الموقف.

اعتلى وجه "إكسام" الحزن عندما اكتشف عدم وجود مياه في البيضة. ولكنه لم يكن يريد لنفسه أن يصبح أضحوكةً بين رفاقه، وأن يسخروا منه أكثر من ذلك؛ لذا فقد أعاد العصا وجلد الحيوان بحذر لسد البيضة، ثم حملها وعاد إلى الآخرين. وإذا بالجميع ينظرون إليه، متوقعين أن يميل برأسه إلى الخلف ويتجرع الماء الذي في البيضة، ولكن بدلاً من ذلك فقد أخذها تحت ذراعه ولم يهمس ببنت شفة، وسار بجانبهم في خطى ثابتة.

وهكذا ساروا، وظل الآخرون يراقبون "إكسام" بطرف أعينهم، منتظرين أن يأخذ رشفة ماء، ولكنه لم يفعل قط. ومن آنٍ لآخر، كان ينقل البيضة من إحدى ذراعيه للذراع الأخرى، وعلى الرغم من أن البيضة كانت ثقيلة، فلم ينطق "إكسام" بكلمة ولم يأخذ أية رشفة.

وبدأت الدهشة تعتري بقية رفاقه، حيث أخذوا يتساءلون فيما بينهم: "لماذا لا يشرب من هذه البيضة الضخمة؟" وقال أحدهم: "لعله يعرف شيئًا لا نعرفه، ربما يعلم أننا أبعد ما نكون عن الديار وليس معنا أي ماء، ويحاول توفير هذه البيضة الضخمة ليصل إلى دياره سالمًا."

وقال آخر: "لعله يكون شهمًا، ولا يريد أن يشرب ماءه ونحن عطاش".

وقال ثالث: "أو لعله ينتظر كي يشاركنا ماءه عندما تشتد حاجتنا إليه".

وأخذوا جميعًا يفكرون: "ربما لو تعاملت معه جيدًا، سيعطيني بعضًا من الماء الذي معه، إنني أريد بعضًا من ذلك الماء".

ومن هنا، بدأ كل منهم يعامل "إكسام" بطريقة مختلفة كل الاختلاف عما كان في السابق، فبدءوا يتحدثون معه من جديد، ويشاركونه لحم الظبي المجفف، كما ساعدوه أيضًا في الإمساك بالسحالي والعقارب واعتصار الماء منها.

والأكثر من هذا وذاك، فقد عرضوا عليه حمل البيضة الضخمة، ولكن "إكسام" – ذلك الصياد المتعقب لآثار الفيل البري الضخم – كان على قدر كاف

من الذكاء جعله يرفض بأدب في كل مرة. وكلما ازداد صمته، ازداد اقتناع الآخرين أنه يخفي سرًا عظيمًا حقًا ولا يريد التصريح به.

وعندما وصلوا إلى الديار، لاحظ الجميع كيف أن الشباب الأكبر سنًا يتفننون كل كلمة يقولها "إكسام". ولاحظوا أيضًا كيف أنهم جعلوه يشاركهم طعامهم، بل ويساعدونه في إماطة الصخور الضخمة والحصى في مكان نومه قبل أن يرقد لينام كل ليلة. لاحظوا ذلك كله وغيره من أشياء مماثلة، وازداد احترامهم لـ "إكسام" وتقديرهم له. وفي آخر الأمر ومع مرور الوقت، أصبح "إكسام" الرجل الأكثر وقارًا وقوةً في قبيلته.

حتى فيما يتعلق بما حدث في لعبة "الاستغماية" التي انتشرت فيها شائعات حول ملابس "إكسام" والرقع الموجودة فيها الشبيهة بتلك التي تظهر لو أن شخصًا قام بأخذ قطعة حادة من الحجر الصوّان وأخذ يجزّ بها ملابسه المصنوعة من جلد الحيوان بقوة. لقد أضفت هذه الملابس طابعًا أكثر بساطةً على تلك الرحلة البطولية التي كان "إكسام" يخرج فيها لاقتفاء أثر نعامةٍ عبر سهل مليء بالحصى في أثناء ربط عصابة على عينيه مصنوعة من جلد الحيوان. وحتى هذه الشائعة لم تنجح في تشكيل تهديد قوي وصارخ على مكانة "إكسام" في القبيلة.

ولم تكن هذه هي نهاية المطاف بالنسبة لـ "إكسام" ورفاقه، فقد عاش "إكسام" عمرًا مديدًا وسعيدًا.

والآن، نأتي للجانب الأهم وهو الدرس المستفاد من هذه القصة: قصة "إكسام" وبيضة النعامة. إذا أمعنا التفكير لبرهة، فسنجد أن هذه القصة انطوت على جميع أسرار الحياة. وأول هذه الأسرار مفاده: أنك لا تحتاج إلى أن تصطاد فيلاً بريًا ضخمًا كي تحقق النجاح في حياتك. لا أحد يحتاج إلى

أن يخرج ليطارد الثيران أو يصارع من أجل اصطياد حوت ضخم بالحربون(١) كما فعل بطل رواية Moby Dick عندما عرّض حياته وحياة من معه من طاقم السفينة للخطر في مغامرة منه لاصطياد حوت ضخم. الحقيقة هي أنك لست مطالبًا بفعل أي شيء، وكل ما عليك هو أن تعرف كيف تختلق شيئًا وتسعى ورائه.

يكمن داخل كل منا سر وجوده والغرض من حياته. إنها الحقيقة الجوفاء، تمامًا كتلك القشرة التي ملأها "إكسام" ورفاقه بالماء. إنها لم تكن سوى قشرة بيضة جوفاء، وهم من أسبغ عليها تلك الأهمية التي كانت تمثلها في القصة. وعليه، فدور كل منا أن يحتضن هذا الفراغ، وأن يمنح الناس الفرصة لإقناع أنفسهم أنه ثمة شيء هناك. ولنعلم أن هناك الكثير من الأشخاص لا يحظون بهذا القدر من الأمان والثقة في النفس الذي نحظى به نحن. حاول أن تنجح في تحقيق هذا، بصرف النظر عن أي شيء آخر. وها أنا ذا أؤكد لك وأكرر على مسامعك مرةً أخرى، هذا هو الأسلوب الذي علينا أن نتبعه في حياتنا: كل منا بحاجة إلى البحث عن مكنون ذاته وجوهر حياته، عن بيضة النعامة الدفينة الخاصة به. وليس هذا فحسب، ولكن علينا أيضًا أن نحكم قبضتنا عليها ونعلي من اعتزازنا بقدرها متى وجدناها وعثرنا عليها.

---

(١) الحربون: رمح طويل لصيد الحيتان.

الفصل الثالث

البحث عن الرفيق

إنَّ معرفة المرء بمكنون ذاته وجوهر حياته يمكن أن يساعده في العديد من المواقف. ولنفكر في الحب مثلاً، أو دعنا لا نسميه الحب، ولنسمِّه ذلك الشعور الملتهب الذي يشعر به الفرد تجاه شريكه في الحياة، ويصطلح على معرفته بالحب. إن كلاً منا في حاجة إلى الحب، أو على الأقل في حاجة إلى ما يجعل هذا الشعور الملتهب تخف حدته. إن الحب – في واقع الأمر – شعور متعدد المعاني.

إن الحب شيء جميل ورائع، وما من أحدٍ إلا وتحدث عنه بكل تقدير، ويكفينا أن نعلم – على سبيل المثال – أن العلماء قد صرحوا بأن مستويات الكوليسترول عادةً ما تنخفض عند الأشخاص الذين يعيشون حالة حب. وعن نفسي، فقد حدث هذا معي حقًا، ولكن السبب أن كل من أحبهم لا يدعونني أتناول على الإفطار شرائح اللحم مع صوص جبن الركفورد، ولكن ...

على الجانب الآخر، فقد ألهم الحب الكثير من الشعراء والمطربين بكلمات الحب الدافئة، كما أن الفضل يرجع إليه أيضًا في ظهور ما نعرفه بِعيد الحب. على أية حال، دعنا لا نفكر في الأسوأ.

تتمثل المشكلة الكبرى مع الحب في تلك العقبة الأبدية في العثور على الشخص الذي تهمس له بكلمات الحب الدافئة وتحتويه بمشاعرك. لطالما كانت هذه هي المشكلة دائمًا. ولعل وقع ذلك على المرأة يكون أقوى وأكثر حدةً؛ فالمرأة مطالبة بأن تظل حبيسة تلك القيم والمبادئ المتعارف عليها.. يجب أن تظل حبيسة تلك الأبراج العاجية التي تعود إلى العصور الوسطى في شكلها وجوهرها، أو ربما عليها أن تقف أمام كهف التنين الضخم أو تعيش حياتها في انتظار فارس رحّالة يعترض طريقها صدفةً، أو رجل أعمال ثري يختطفها

ويذهب بها بعيداً. وعلى الجانب الآخر، نرى الرجال، ليسوا أحسن حالاً من النساء، لا سيَّما وأن الكثير منهم ليسوا بفرسان أو أثرياء.

(وإليك اعتراف صريح مني - عزيزي القارئ - أن هذا الفصل موجه خصيصًا لرجال هذا الزمان. أما أنتن أيتها النسوة، ربما قد تحتجن إلى قراءته أيضًا؛ فالكتاب يهدف إلى غرض معين ويوصل إلى نهاية محددة، ولا داعي لإفساد تلك النهاية بالقفز في القراءة وتخطي بعض الفصول.

عندما يتعلق الأمر بالبحث عن شريك الحياة، فثمة الكثير والكثير من النصائح التي أسداها الأشخاص على مر السنين لبعضهم البعض وستجد بعضها مفيداً.

- "حاول أن تجد لنفسك نادياً جيداً، وبعض اللوحات الفنية الرائعة، واخرج من عباءة والديك وكهفهم المألوف لك قدر المستطاع." - ما قيل للرجل الأسترالي قديماً.
- "احصل على وظيفة وسيارة وسترة زرقاء داكنة." - ما قيل للرجال في خمسينيات القرن الماضي.
- "اترك شعر رأسك ليكتسب بعض الطول." - ما قيل للرجال في ستينيات القرن الماضي.
- "أدِّ بعض الحركات الإيقاعية الراقصة، وارتدِ بعض الحلي والإكسسوارات، وقص شعرك بطريقة غريبة وارتدِ قميصاً من الألياف الصناعية سريعة الاشتعال" - ما قيل للرجال في سبعينيات القرن الماضي.
- "اشترِ فاكسًا وتليفونًا لاسلكيًا، واشترك في صالة جيمانزيوم، واحصل على وظيفة غير مألوفة، وسيارة لا تستطيع دفع ثمنها" - ما قيل للرجال في ثمانينيات القرن الماضي.

◆ "اشترك في إحدى المجلات النسائية اللامعة، وتابع مع أحد أخصائيي العلاج بالريفلكسولوجي، ومدرب "جيم" خصوصي، واشترِ بعض منتجات العناية بالبشرة الخاصة بالرجال، وتليفونًا محمولاً (جريًا وراء الموضة والمظاهر لا أكثر)، وحاول إعداد ثلاثة أطباق مختلفة لا تتضمن الباستا أو الخبز المحمص." - هذا ما قيل للرجال في تسعينيات القرن الماضي.

ستلاحظ أن هذه القائمة من الملاحظات والنصائح تزداد عامًا بعد عام، ليس لأن النساء أصبحن كثيرات المطالب عن ذي قبل. في حقيقة الأمر، فعندما تنظر إلى النساء الجميلات في هذا العالم وهن يسرن برفقة رجال أوغاد وقبيحين وسيئين عمومًا - من المنتظر أن يكملوا معهم مشوار الحياة، تجد بما لا يدع مجالاً للشك أن ذوق المرأة العام لم يعد يخضع لأي معايير عامة على الإطلاق فيما يتعلق باختيار الرجل الذي تكمل معه مسيرة الحياة. لقد ازدادت قائمة الطلبات لأن هذه هي الطلبات التي أصبحنا نضعها نصب أعيننا.

ونحن أيضًا من قلنا لأنفسنا يومًا: "لقد كنت مُحِقًّا طوال هذه السنوات، نحن أشخاص نتسم بالسطحية، ولا نرى الأمور إلا من منظور واحد. إننا في حاجة إلى أن نضيف رونقًا ومعنىً وعمقًا لحياتنا. بهذه الأمور وحدها، سنفجر أقصى طاقاتنا. انظر إليَّ، إنني أنفق الكثير على الطعام، ومع ذلك، ما زلت أتقاضى راتبًا كبيراً وأذهب إلى "الجيم" للحفاظ على لياقتي. كما أن لي آراء فيما يتعلق بالديكورات الداخلية. باختصار، لدي الكثير من الاهتمامات ومتعدد الأبعاد حقًّا، وأستحق أن أجد الحب في المقابل."

وعندما تسمع النساء ذلك تصيبهن حالة من الدهشة؛ لأنهن لا يصدقن أننا نؤمن بجميع هذه الأمور، وهنَّ أنفسهن لا يعتقدن فيها أيضًا. إنه الطريق المعهود لنا جميعًا السير فيه، إنه الطريق الذي يسلكه كل الرجال ولا يمانعون من التوقف بين الحين والآخر للاستفسار عن خط السير الصحيح، وكل ما هنالك أننا نتظاهر بأننا نفعل ذلك.

إنَّ الأمر أشبه ما يكون باتصال الروس بالرئيس الأمريكي "ريجان" عبر الهاتف في الثمانينيات قائلين له: "اسمع يا صديقي، لقد فكرنا في الأمر وتوصلنا إلى أن إبقاءنا على هذه الصواريخ والرءوس النووية سيثير لنا مشاكل أكثر بكثير مما تستحق. وعليه، فسوف نتخلص منها. سنلقي بهذه الأسلحة في البحر بالقرب من نيوزيلندا. وبالطبع لن يحدث ذلك إذا كنتم تحتاجون إليها؟ بإمكاننا أن نرسل إليكم رءوس القذائف النووية، على الفور، إذا أردتم ذلك؟ سيتم لف هذه الرءوس بإحكام حتى لا تتعرض للتلف. وتستطيع أن تضيفها إلى مجموعة الأسلحة الخاصة بك. والأكثر من هذا وذاك، فسوف نتحمل رسوم الشحن أيضًا، وسنفعل أي شيء طالما أنكم ترونه في الصالح."

ولكن لم ينتهِ الأمر هنا، فقد فكر "ريجان" ثم قال: "لا.. لسنا بحاجة إلى ذلك كله، إنني سأفتقد وجود قوى عظمى أخرى في العالم. بالإضافة إلى أن لدينا الكثير من مواطن التميز التي لم نكتشفها بعد. لقد كنت أنوي التحدث معكم قليلاً عن الحرب الكيميائية، ولعله الوقت المناسب الآن لفتح هذا الموضوع."

أعتقد الآن أنه ما من شيء يجعلنا نلومهم على قبول هذا العرض، ولكن الأمر برمته لم يعد بأية فائدة على أيٍّ منَّا. وتفسير ذلك يتلخص في الآتي: إن الأمر لم يجدِ نفعًا. في الواقع، هذا هو الحال فلا شيء يجدي نفعًا للرجال، كل ما هنالك أنك تبذل مجهودًا مضاعفًا لتطوير نفسك وتنمية قدراتك، في الوقت الذي تصرخ فيه رجولتك قائلة: "هذا ليس تطورًا. لقد كنت رجلاً أفضل قبل أن تلجأ إلى استخدام العطور الفواحة المصنوعة من زيت الزيتون .. لقد كنت رجلاً أفضل عندما تخيلت أن الريكي أسلوبٌ شرقيٌّ لجمع الأوراق المتساقطة!"

إنه جهدٌ فائق للغاية، وبشكل عام لن يحالفك الحظ فيه – الأمر الذي سيجعلك تشعر بالفشل، الذي هو بدوره أمر سلبي على حياتك العاطفية. وحتى إن نجحت جهودك ومساعيك، فإن النتائج لا تأتي على القدر نفسه من المعاناة

التي واجهتك. وفي النهاية، تتسلل إلى نفوسنا مشاعر البؤس والجبن وعدم الجرأة. وعليه فإننا نشبع رغباتنا ونعبر عنها بطرق أخرى، حتى إن كانت أقل جاذبيةً وسحراً.

وعليه، فبدلاً من أن تقضي أوقات فراغك في مشاهدة اللعبة التي تحبها، تكتفي بأن تظل قابعًا أمام التلفاز تشاهد سباقًا للسيارات أو نحوه وتحاول أن تتظاهر أنك مقتنع وراضٍ بحالك هكذا.

وبدلاً من أن تقول: "لا أريد التحدث عن علاقتنا الآن"، فإنك تقول: "كنت أود حقًا التحدث بشأن علاقتنا الآن، بيد أن مؤشرات حالتي المزاجية تؤكد أنني أمر بانتعاشة شعورية الآن، ولا أريد أن أفسد هذه اللحظة الإيجابية في حياتي بسحابة غضب مصيرها إلى الانقشاع والتلاشي".

وفي الواقع، فإن النساء لا يمثلنَ استثناءً لهذه القاعدة، ولا تجدهنَّ أكثر سعادةً أيضًا؛ فالنساء أحببن الرجال، وهذا أمر سجله التاريخ على مدار مختلف العصور والأزمان، وإحقاقًا للحق، فإنهن أحببن الرجال كما هم، وهذا أمر – فيما أعتقد – لا يخفى على أحد منا وليس لي السَّبْق فيه. إنها إحدى حقائق الحياة، تماماً كفكرةِ تصنيع التلفاز، أو كمدلول إشارات المرور لكل من السيارات والمشاة. ومتى توقفنا عن السعي وراء تأكيد هذه الحقيقة، تبدأ الفوضى. وهذا بالفعل ما فعلناه. لقد سعينا وراء هذه الحقيقة فعلاً. وأردنا لأنفسنا أن نكون أفضل، وأخذنا ندرس ونمعن النظر في كيفية الوصول لهذا الهدف. (وهو الأمر الذي يرجعنا مرةً أخرى إلى فكرة أننا لسنا بحاجة إلى أن ندرس سبلاً تجعلنا أفضل؛ فالأمر لا يستحق هذا العناء.)

والآن فنحن – الرجال – لم نعد نمثل نموذج الرجل الذي عرفته النساء وأحببنه بامتعاض أو رفضنه بحب. وهذا يعني أن النساء أنفسهنَّ مصابات بحالة من الارتباك وفتور الهمة مثلنا تماماً. بل إن الأمر يعد أكثر سوءًا بالنسبة لهن؛ لأنهن قد حصلنَ في النهاية على ما يردن، ولكن ليس هذا ما يردنَه حقًا.

إنهنّ يجلسن هناك يفكرن: هل أريد حقًا - في قرارة نفسي - أن أشارك حياتي مع هذا الرجل الذي لا يهتم إلا بنتيجة الدوري الساخن بين ناديي "الأهلي" و"الزمالك" أو بحل الكلمات المتقاطعة طوال الوقت!

لهذا السبب فإن نصيحتي للرجال في الألفية الجديدة بسيطة: ابحث عن مكنون ذاتك. ابحث عن قيمة نفسك .. ابحث عن بيضة النعامة خاصتك! اعلم أن الأمر برمته جديد عليك. ولكن، هل تذكر "إكسام" وبيضة النعامة الخالية التي كانت معه؟ هل تذكر عندما انفرد بها لنفسه وتعجب جميع من حوله وتساءلوا عن السر الذي يخفيه "إكسام" عنهم؟ هل تذكر كيف ظنوا جميعًا أنه يخفي سرًا عنهم؟ إذا كان قد تم ملء بيضة النعامة بالماء، وكان "إكسام" شربه، أو تقاسمه مع غيره، أو حتى سأل بصوت عالٍ عما يصنعه بها، فما كان ليصبح الرجل الأكثر تأثيرًا وقوة بين أفراد قبيلته. إن روعة السر وقوته تكمن فقط في أن يظل سرًا.

إن المغزى وراء قصة "بيضة النعامة" موجود داخل كل واحد منا، وإذا احتفظنا بها واحتضناها وأعطيناها الرعاية الكافية، ورفضنا تحت أي ظروف أن نكشف خباياها، عندئذٍ فقط سيبدأ الآخرون في تخيل ما بداخلها ويتساءلون فيما بينهم عما يمكن أن تحتوي عليه. والنساء - على وجه التحديد - يفضلن تصوراتهن وانطباعاتهن الخاصة التي يكوِّنّها عن الرجال، وهو ما يكون حقيقيًا إلى حد ما. ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى أن ما يتخيّلْنه عادةً ما يكون أكثر تشويقًا وجذبًا عما عليه الوضع فعلاً.

وعليه، فانتبه جيدًا إلى ما أقوله: بدلاً من محاولة تطوير نفسك وتحسين إمكاناتك، احصد مزايا ترك نفسك للآخرين كي يُقَيِّمُوك ويطوروا شخصيتك. اجعل الصمت صديقك. اجعل النظرة الفاحصة الواعية، والابتسامة الغامضة، وعبوس الوجه المفاجئ غير المبرر، سماتك الأكيدة، كما لو كنت تتذكر كلمات قالها لك شخص ما مختلف تمامًا عنك منذ فترة طويلة مضت. طالما أنك لا

تجلس هناك ككمٍّ مهمل يهذي بكلام غير مفهوم، وطالما أن مزحاتهم السخيفة لا تجد لها صدًى عندك طوال الوقت، سوف يجعلهم ذلك يستشعرون أعماق وأغوار وأبعاد نفسك التي تستطيع أنت بالكاد اكتشافها. ناهيك عن إيهام أنفسنا باتباع برنامج ما للإصلاح وتطوير الذات.

دعني ألقي على مسامعك - عزيزي القارئ - حكايةً طريفة توضح لك أضرار أن تتكلم أكثر من اللازم. إن صديقي "شانكو" يتملكه شعور كبير بالتفاؤل عندما يتعلق الأمر بمقابلة فتاة جميلة. هذا فضلاً عن أنه شخص مغامر. فقد قضى أفضل سنوات عمره يبحث عن فتاة صغيرة وجميلة تشاركه رحلة حياته. لعله حقًّا كان مغامراً، ولكن هذا لم يجعل منه الشخص الذكي الحَذِق.

العام الماضي، قضى ساعاتٍ طوالاً في مكتبته المتخصصة في بيع الكتب، ولكن دون جدوى. وجلس يحدث نفسه متذمراً: "ما من امرأة جاءت لتتفقد قسم الكتب الرومانسية. وإذا مررت بجانب كتب تطوير الذات، فلن تقابل سوى هذا النوع من النساء اللاتي يقرأن هذه النوعية من الكتب".

وأخيراً وجد بُغيته في المتاجر الكبرى. وكم استنكرت عليه ذلك، ولكنه كان مقتنعًا بما يفعل؛ وقال لي: "إذا جئت معي، فلن أشتري شيئًا في يومي هذا".

وكان أول مكان نذهب إليه في صباح يوم الأحد هو أحد المتاجر المحلية الكبرى. فقال "شانكو": "ما يجب أن نفعله الآن هو أن نجد طريقةً لفتح أي موضوع".

وعن نفسي، فقد وقفت في مكاني أمام قسم الخضراوات والفواكه الطازجة، وتخيلت نفسي وأنا أحاول إيجاد طريقة لفتح حوار لائق مع أول سيدة ستدخل إلى هذا القسم، وبالفعل اقتربت أولى المرشحات. كانت حسنة الطَلعة، وكان شعرها لا يزال نديًا. وبينما كنت أتمشى ببطء كي لا أبرح مكاني، إذا بها تشير إلى ثمار الأفوكادو، وترسل إليّ - في أثناء ذلك -

ابتسامةً عابرة، وجدت فيها الكثير من الحث والتشجيع على التقدم منها والتحدث إليها. لقد كانت ثمار الأفوكادو وسيلةً مثلى للتقرب إلى هذه السيدة الجميلة.

وما أن اقتربت منها قليلاً حتى همهمت قائلاً: "إن الكتل المتساوية من جميع الغازات يكون لها العدد نفسه من الجزئيات إذا تماثلت عوامل الضغط والحرارة." ونظرت إليّ مباشرةً وقد خفت الدفء الذي كان في عينيها.

وإذا بها تتجه إليّ قائلةً: "أظن أنك مخطئ، فعلى ما أعتقد أنك تحاول استخدام ثمرة الأفوكادو كوسيلة للتقرب، تلك الفاكهة الاستوائية التي لها شكل الكمثرى، ولونها أخضر، وبذرتها كبيرة وقلبها صالح للأكل. ومع ذلك، فبدلاً من أن تتحدث عنها، إذا بك تتحدث عن قاعدة 'أفوجادرو'، وهي إحدى الفرضيات الشهيرة التي سميت باسم واضعها العالم الفيزيائي 'أميجو أفوجادرو' في القرن الثامن عشر".

كيف كان لي أن أتصرف – على حسب ما تظن – في مثل هذا الموقف؟ هل تعتقد أنه كان لا بد أن أبتسم ابتسامةً ساخرة، أم أن أطأطأ رأسي ثم أنصرف على استحياء، تاركًا الموضوع هكذا لتظل هي تتساءل عما إذا كنت أحاول حقًا إثارة موضوع حول مكونات الغازات وخصائصها؟ أو هل تعتقد أنه كان لا بد لي أن أظل واقفًا هناك متلعثمًا ومتمتمًا بكلمات غير مفهومة: "ماذا؟ مم ....، لا، كل ما هنالك أنني أفكر بصوت عالٍ، وبالمناسبة هل كان يعيش حقًا في القرن الثامن عشر؟ فلم أكن أعرف أن...".

سأترك لك تخمين أي هذه الخيارات آثرت. أما عن صديقي "شانكو"، فلم يكن أفضل مني حالاً. فقد ظل واقفًا في قسم الأطعمة المجمدة، يختلس النظر إلى سيدة متجهمة، لم تعلُ وجهها أية مسحة مكياج. وما أن مدت يدها لتأخذ أحد أكياس الدجاج المجمد حتى مد يده هو الآخر ليمسك بالكيس نفسه في محاولة لأن تلمس يده يدها.

وإذا بالمرأة المتجهمة تسحب يدها على الفور، وحاول "شانكو" أن يقول شيئًا، ولكن الكلمات لم تسعفه. وعلى ما يبدو فقد تعاطفت السيدة معه، وحاولت أن تخرجه من هذا الموقف المحرج الذي وضع نفسه فيه. وإذا بها تسحب أحد أكياس الدجاج المجمد وترفعه قائلة: "هل تريد صدور دجاج؟"

وارتسمت على وجه "شانكو" ابتسامة عريضة، أما أنا فقد تصلبت أطرافي، ولم أستطع فعل شيء، وعلى غير العادة فقد لزم "شانكو" الصمت. ثم نظر إلى تلك السيدة، وقال: "لا.. شكرًا". وحاول من نظراته وطريقته أن يبدي لها إعجابه بها.

المحافظة على الرفيق

إذا نظرنا للوراء قليلاً، فإنني أرى أن هذه الحكاية لم تضف الكثير على الإطلاق، ولكن على أية حال، فقد فات أوان ذلك. إن ما أنصح به كل رجل الآن هو أن يواصل – دون كلل أو ملل – رحلة البحث عن المرأة التي تشاركه حياته. كما أنصحه أيضًا ألا يتسرع – متى وجد هذه المرأة وتعرَّف عليها – في الزواج منها. فعليه أولاً أن يثبت أنه جدير بها، وعليه أن يبحث في مكنون ذاته وأن يستشعر خبايا نفسه، وحقيقة مشاعره تجاهها. وليعلم أيضًا – في أثناء ذلك – أن المحافظة على شريك الحياة أصعب من العثور عليه.

وإذا وصل الأمر إلى الزواج، ودعوت خطيبتك وأسرتها لرؤية شقتك التي ستصبح مسكن الزوجية فيما بعد، فاحرص أن يكون كل شيء منظماً ومرتباً. وإذا أردت أن تكون لديك لمسات ديكور خاصة في منزلك، فتأكد أنها ليست من اللمسات السريالية المبهمة، كمجموعة من التماثيل غريبة الشكل – مثلاً – أو سحلية محنطة.

تأكد من تنظيف الشقة جيداً وعدم ترك أشياء يمكن أن تحرج عروس المستقبل أو تضايقها. كذلك، قم بإزالة أية صور فوتوغرافية لك ولأصدقائك تم التقاطها في أي من المناسبات التالية:

- رحلة صيد
- حفل جماعي
- مناسبة رياضية ترتدى فيها شورت رياضي

لا حرج من وضع الصور الفوتوغرافية التي تم التقاطها لك وأنت تتسلم شهادة تخرجك أو جائزة نوبل للسلام – لا سيما إذا كانت موضوعة بميل قليلاً على الحائط لتعكس تواضعك. ولن يكون هذا بالطبع إلا إذا كنت قد حزت بالفعل على إحدى هذه الجوائز.

فضلاً عما سبق، فلن أحدثك كثيراً عن فضيلة الصمت – إذا سمحت لي أن أسميها "فضيلة". فحاول أن تستعيد في ذهنك صورة الرجال الذين يلزمون الصمت ولا يكثرون الحديث، وفي المقابل استحضر صورة الرجال الذين يحبون الثرثرة والكلام. حاول أن تكون ذكيًا قدر المستطاع. إذا سألتك زوجتك: "فيمَ تفكر؟" – وأنت تعلم أنها ستفعل – ففكر في إجابتك جيداً. فلا تقل: "كنت أفكر في مقدار حبي لك." أو "كنت أتساءل فيم تفكرين." وذلك ليس فقط لأن كلامك سيبدو غير واقعي، ولكن لأنه سيقلل من قيمة كلامك ومن قدرتك على الخروج من مواقف صعبة فيما بعد. فسوف تحتاج إلى هذا الرد في مشكلة أكبر وموقف أصعب.

تستطيع – عزيزي القارئ – في هذا الموقف أن تجيبها بقولك: "كنت أفكر في أن أصطحبك في رحلة إلى أحد الشواطئ الهادئة؛ فقد مضى على آخر نزهة لنا معًا فترة طويلة".

وغير هذا وذاك، أنصحك أيضًا ألا تكون إجابتك صادقة كأن تقول: "لقد كنت أفكر في مباراة يوم السبت؟" أو "كنت أتساءل عن سبب هذه الضوضاء التي أسمعها كلما شغلت محرك السيارة". إن مثل هذه الإجابات تؤثر بالسلب على رأي زوجتك فيك، ومن ثم احرص على أن تنتبه لإجابتك وتحتفظ بهذه

الإجابات الصادقة لنفسك. تستطيع أن تنظر عبر النافذة وتقول: "أليس غريبًا أن يكون 'موتسارت' و 'أرسطو' قد نظرا إلى القمر نفسه الذي أنظر إليه؟".

حاول ألا تسيء فهمي، فلن يجعلها ذلك تظن أنك كنت تفكر حقًّا في تقلبات الدهر وتتأمل أحوال هذا العالم المتغير باستمرار. فهذا الأمر لا يعنيها بأية حال. حاول أن تتبصر الأمور جيداً، إنها لم ترد أن تعرف ما تفكر فيه حقًّا. وإنما ما أرادته فقط هو أن تمنحها إجابة تستطيع الاعتماد عليها في إكمال تلك الصورة التي رسمتها لك في ذهنها وأحلامها. والآن، ردد معي: احضن أحلامك واكتشف أغوار نفسك.

الفصل الرابع

اكتشاف الذات الحقيقية

إذا عدت بك – عزيزي القارئ – إلى بيضة النعامة التي سبق وسردت قصةً عنها في الفصل قبل السابق، فلا شك أنك ما زلت تذكر أن بيضة النعامة كانت رمزًا للذات البشرية والقدرات الكامنة داخل كل فرد منا. في هذا الصدد، أعتقد أننا قد نجحنا حتى الآن في معرفة حقيقة ذواتنا والقدرات الكامنة داخل كل فرد منا. لا شك أن الأمر قد يستغرق بعض الوقت لمعرفة كيفية استكشاف هذه الذات الغامضة، ولكن إذا أتقنت تطويعها والتعامل معها، فسوف تتفتح أمامك أبواب عديدة. باختصار، سيفتح العالم أمامك الباب على مصراعيه. ولكن، كن حذرًا؛ فثمَّ خطر لا يزال قائمًا، فهناك من لم يتعلموا بعد كيفية تقبل حالة الخواء النفسي أو الداخلي التي يعيشونها. وهناك من يتملكهم الخوف من استكشاف أغوار أنفسهم الدفينة، ويدفعهم ذلك إلى الاعتقاد في أنهم سيصلون – في النهاية – إلى لا شيء، كما أن هذا الأمر لا يشغلهم كثيرًا.

احترس عزيزي القارئ؛ لأن الغافل والمتهور بيننا سيجد نفسه وقد ملأ تلك البيضة الجوفاء بأمور تافهة وأفكار واهية – حتى قبل أن يدرك حقيقة ما يحدث حوله والمعتمل داخله. ولعلك تتساءل في داخل نفسك: "ما الذي يقوله هذا الرجل؟" إنك على علمٍ حقًّا بحقيقة ما أتحدث عنه. اذهب إلى إحدى المكتبات القريبة وألقِ نظرةً على الكتب الموجودة. أينما تجول بناظريك ثمة نوعية جديدة من الكتب تحتوي على الكثير من الاختلاق والهراء الذي هو في انتظار اللحظة المناسبة لاختراق كل منا والتوغل في أعماق أنفسنا؛ تمامًا كالمشروب الغازي الذي يظل حبيس الزجاجة التي تحويه، ويظل في انتظار الفرصة ليثور وينطلق.

إنَّ الحياة تطالعنا كل يوم بجديد. ففي الفترة الأخيرة لوحظت ظاهرة غريبة، وتفاقم خطرها كالجنون. ولقد تمثلت هذه الظاهرة في الهوس الغريب باقتناء عدد من الكتب الصغيرة المفتقرة إلى حسن الصياغة. ويذهب مؤلفو هذه الكتب إلى غرس أفكار معينة في أذهان القراء، كمحاولة إقناع القارئ أن حياته ستتحسن وتصبح أفضل إذا بدأ في ترتيب أثاث بيته على غرار الناس في الصين. تخيل لو اتجهنا نحن أيضًا إلى تأليف كتاب ساخر لا يخلو من النوادر والجمل المضحكة، وكان موضوعه على غرار هذا الخواء الفكري والابتذال اللغوي الذي يعتقد فيه الناس هذه الأيام، لا شك أننا ما كنا لنتمكن من تنفس الصعداء أو متابعة حياتنا بشكل جيد.

أينما نظرت حولك تجد أناسًا وقد علقوا المرايا في مداخل شققهم أو أزالوها، لا أتذكر بالضبط. فقد قابلت سيدة ذات مرة وقد غطت حواف المنضدة الأربعة بمعجون، وكان ردها الوحيد عندما سُئلت عن سبب ذلك "أن هذا الأمر يجعل الحواف دائرية، مما يسمح بسريان الطاقة بحرية وانسيابية في أنحاء المنزل". – وهذا أمر أخبرتني به حقًا ولا أختلق منه شيئًا. إن كان سريان الطاقة بحرية حقيقي كما تقول، فإنها تحتاج إلى فنِّي كهرباء أو اختصاصي في طرد الأرواح الشريرة، أو موصل إضاءة فوق رف المدفأة لديها، وليس إلى أربعة كتل معجون رمادية.

فضلاً عن هذا، ما الذي يجعل شعوب الشرق الأقصى أعظم الخبراء في تحقيق النجاح من خلال الاهتمام بالطاقة الداخلية؟ أو دعنا من ذلك، فإلامَ كان سيؤول الأمر إذا كان الرئيس الصيني "ماو" قد أحسن تنظيم سمات التشابه بين الماء وتركيبات الإضاءة بشكل صحيح، عندما جلس في وقت متأخر من الليل يحتسي فنجان القهوة ويدون ملاحظاته وأفكاره في مفكرته الصغيرة وهي:

١- إرسال جميع المفكرين للعمل في حقول الأرز.

٢- إلهاب ظهورهم بالسياط في أثناء تفقد الحقول.

٣- وضع صور وملصقات له في الحقول.

٤- التأكد من وضع الأريكة في شكل متوازي مع صف الزهور. أم ينبغي أن يكون في وضع عمودي؟ لا أتذكر أيهما.

٥- اختيار أحد المفكرين الموجودين في حقل الأرز لكتابة أسس تحديد الوضع الأمثل للأريكة. (ذلك حتى لا ينسى في المرة القادمة.)

٦- قتل هذا المفكر رميًا بالرصاص حتى تدفن معه أسس ضبط وضع الأريكة فلا يعرفها بعده أحد.

تختلف أفكار ومعتقدات المجتمعات عن بعضها البعض وما يتقبله مجتمع لا يُشترط أن يتقبله الآخر. إن الأمور تختلف وتتباين من مكان لمكان، ومن مجتمع لمجتمع. فما هو مناسب في معبد ياباني مثلاً، لا يتناسب بالضرورة مع منزل فخم في الحضر تظهر عليه أمارات الثراء والغنى. وإذا كنت أنت ممن لديهم أفكار ومعتقدات غريبة، فلا تحاول فرضها على الآخرين ولا تتعجب من رفضهم لها فهم أيضًا أحرار فيما يعتقدون.

تجدر الإشارة إلى أن كثيراً من الكتب التي يتم الترويج لها جيداً لا تشتمل بالضرورة على أفكار جيدة. فبينما كنت أتفقد بعض المكتبات، عاجلتني البائعة بصوت أشبه بصوت العملة المعدنية عندما تقع من جيبك وتتدحرج على الرصيف محدثةً صوتًا كالصفير المتقطع: "هل قرأت هذا الكتاب؟ إنه كتاب رائع سيغير مجرى حياتك، إنه يتحدث عن حضارة "المايا القديمة". في الحقيقة، حاولت أن آخذ ما أريد بسرعة وأذهب، لا سيما وأنني لا طاقة لي بأسلوب الرفض بذوق وشياكة.

فن الرفض

إن تعبير "الرفض بذوق أو شياكة" ما هو إلا تعبير أطلقته على طريقتنا كعصور حديثة في فرض الهيمنة والسيطرة من خلال تقبل كل الخاسرين في عصور ما قبل التاريخ. فالناس يرحبون هذه الأيام بمناهج التصوف والتأمل القديمة، شريطة أن يرتبط ذلك بسكان الأنكا أو أي من سكان الحضارات والثقافات القديمة التي زالت من على وجه البسيطة دونما أن تترك أي أثر. في الواقع، إنني لا أفهم هذا الربط ولا أحبذه. فما أبعاد تلك الرومانسية غير الغامضة التي يمكن أن يقدمها أمثال هؤلاء. إن حقيقة الأمر تتلخص في أنهم يخسرون. لقد ألقوا النرد الخاسر على طاولة التاريخ الواسعة الرحبة.

فبصرف النظر عن تعاطي الكوكايين في المجتمع الاشتراكي والإشادة بالمزايا الاجتماعية لمفهوم التضحية الإنسانية، ماذا في اعتقادك يمكن أن نتعلم من شعب الأنكا؟ فإذا كانت هذه الحضارات القديمة على قدر مذهل من المهارة والرقي، فأين هي الآن؟ لا شك أن بناء الأهرامات وسط الأدغال أمر رائع ومثير للدهشة حقًا، ولكن ماذا عن الفائدة التي عادت على البشرية من اختراع السيارة والعجلة؟

إنني أعترف أن التاريخ لا يزال طويلاً وأنه سيأتي اليوم الذي تدور فيه عجلة القدر وتتفوق فيه مجتمعات مثل بوروندي أو غينيا الجديدة على الحضارة الغربية. وهذا أمر أتقبله جيدًا، وعندما يحدث لا أتوقع من سكان غينيا أن يؤلفوا كتبًا حول إسهامات الغرب في بدايات القرن الحادي والعشرين، وإنما سيصبون جلَّ اهتمامهم على أمور أخرى وسينتقدون الغرب.

إن الخاسرين الحاليين هم شعب المايا، فليس بإمكانك اليوم أن تتفقد عددًا من الكتب في إحدى المكتبات العامة إلا وتتعثر في شيء يحتفي بحضارة المايا. وتستطرد هذه الكتب - بل وتبالغ - في ذكر مستوى مهارتهم وأسلوب

حياتهم الاشتراكي وفن المعمار الجميل لديهم. وليس هذا فحسب، بل يذهبون إلى أقصى الحدود عند الحديث عن مدى انضباطهم وحفاظهم على الوقت. بل والأكثر من ذلك، هل تعلم أنهم صمموا ساعات شمسية وعرفوا حركة النجوم؟

حسنًا، إنهم - بلا شك - عرفوا حركة النجوم. في رأيك، ما الذي كنت لتفعله ليلاً إذا كنت من سكان المايا؟ هل كنت ستشاهد التليفزيون؟ أم كنت ستقرأ كتابًا؟

لقد حقق شعب المايا نجاحًا مبهرًا في زمنه؛ لأنهم تنبأوا أن نهاية العالم ستكون في ٢٣ ديسمبر ٢٠١٢. ومع ذلك، فها هو عام ٢٠١٢ يقترب، ويبدو أن أهم ملامحه سوف تتمثل في قدر أكبر من المتعة والإثارة والنقد والنشاط البالغ. بالرغم من ذلك كله، فلا يزال الكثير ينصرفون بأذهانهم عما أخفق فيه شعب المايا، ولا يزالون مقتنعين أن شعوب المايا وحضارتهم من عناصر التاريخ التي يجب أن يتم الاحتفاء بها.

لقد تعرضنا للكثير من التجارب والمشكلات عندما تعالت الأصوات التي تحثنا على أن نصل إلى أغوار أنفسنا ونتأملها كي نعثر على حكمة المايا الضائعة داخل كل منا. لا يجب أن نستمع مطلقًا إلى هذا الهراء. إنها خدعة ولا طائل منها. ولنتذكر دائمًا: ربما نكون كسالى، ولكننا لسنا بأي حال من الأحوال أغبياء.

دعنا نلقي نظرةً أخرى على شعوب المايا، لنتعرف عن قرب على ملامح الحكمة والفطنة التي تميزوا بها كما يشاع عنهم. لقد اشتهرت شعوب المايا بثقافة رياضية مدوية، شبيهة بثقافتنا الحالية في مجال الرياضة. ولا عيب في ذلك، فقد كانوا مغرمين بكرة القدم، وهي رياضة مهمة لديهم ولكن - للأسف - لم تصل إلينا قواعد تلك اللعبة؛ لأنهم ببساطة لم يكونوا يعلمون كيف يكتبون لغةً يمكن لشعوب مثلنا - تأتي بعدهم - أن تفهمها. وأعتقد أنهم لم يكونوا على هذا المستوى من الإجادة أيضًا في وضع القواعد.

في يوم انعقاد المباراة، كانت المدينة كلها تخرج عن بكرة أبيها وتشكل حلقة لمشاهدة المباراة، التي كان يتم في نهايتها تدليك الفريق الفائز وإعطائه حفنة من أوراق الكاكاو لمضغها. أما بالنسبة للفريق الخاسر، فكان يتم مصافحته وينفذ فيه حكم الإعدام الذي كان العقوبة الرسمية للخاسر. ومرةً أخرى، فإن تفاصيل مشهد الإعدام سطحية وغامضة بالنسبة لنا.

على الرغم من ذلك كله، نستطيع أن نقول إنه لا ضرر على الإطلاق مما حدث. فكل ما هنالك أننا عندما نستشهد بهذه الأمور إنما نود أن نشجع ثقافة الفوز في صفوف الرياضيين والمديرين التنفيذيين وكل مسؤول في موقعه. لعل هذا هو المغزى الرئيسي من الاستشهاد بمثل هذه الحضارات الزائلة.. ربما.. ولكن، دعونا نكمل الحديث.

ولعل من أهم الأنشطة الأخرى المؤثرة التي اشتهر بها شعب المايا تلك المسابقات التي كانوا يختبرون فيها القدرة على تناول أكبر كمية من الماء. وإذا ربطنا بين ذلك وبين ما تميزوا به من عبقرية ونفاذ بصيرة لما يحتفلون به اليوم، فإنهم بذلك يكونون قد قدموا أفضل حل لتلك المشكلة المثيرة للجدل والمرتبطة بكيفية الاستمرار في تناول المزيد حتى بعد اكتفاء الجسم. وفي اعتقادي الشخصي، فقد تكون مثل هذه المسابقات هي السبب الرئيسي الذي جعلنا نتعرف على آلية التقيؤ المنتشرة لدينا هذه الأيام. إنها ظاهرة ترتبط كثيراً بأعضاء البرلمان النشطاء، حيث يجدون فيها عذراً قوياً يتيح لهم فرصة ترك الحزب أو مغادرة قاعة البرلمان.

ولكن دعنا نقصي هذا الحديث جانباً ونتحدث بلسان الواقع قليلاً. ما الذي يمكن أن تضيفه إلينا هذه الحقائق المتعلقة بعلم الإنسان؟ أيٌّ نوع من البشر نحن في اعتقاد مؤلفي كتب تطوير الذات؟ حسناً إننا إذا نظرنا حولنا هذه الأيام، سنجد أنفسنا محاطين بمجتمعات على غرار شعوب المايا. إنها مدن جامدة لا تأخذ منها سوى مبانيها الشاهقة التي تتضاءل إلى جانبها كل الأشياء.. إنها مدن على غرار المدن الجامعية التي يعيش البعض منا

فيها اليوم. وعن نفسي فقد قضيت عامين من أسوأ أعوام حياتي في إحدى هذه المدن. وكم كنت أود أن تكون معي لتسمع نبرة صوتي المرتعشة وترى وجهي الذي تعلوه الحُمرة وأنا أستنكر بشدة فكرة العودة إلى هناك مرةً أخرى.

دعني أخبركم بشيء آخر عن شعب المايا. بعد مرور آلاف السنين على ما يجب أن نسمِّيه - شئنا أم أبينا - بالحضارة، لم يكن منهم إلا أن ترفعوا عن مدنهم وحضاراتهم وتنكروا لها. لقد جمعوا كل متعلقاتهم وخرجوا إلى الغابات دون أدنى نية للرجوع.

وفي الواقع، فقد ظهرت نظريات كثيرة بشأن هذا الهَجر الحضاري، بما في ذلك انهيار المعايير التقليدية المتعلقة بالولاء والسلطة، والمرتبطة بخطر الغزو الخارجي، وإن كنت لا أعتقد في ذلك كثيراً. فإذا سألتني، سأقول لك إنه لم يكن الخوف من هجوم خارجي هو الذي دفع شعب المايا إلى هجر حضارتهم وبيوتهم؛ بل هو الملل بعينه.. الملل من أن يظلوا من شعوب المايا. وبعد كل ما سمعناه اليوم، مَنْ ذا الذي يجرؤ أن يلومهم؟ لا يحق لنا أن نشير بإصبع الاتهام في انهيار حضارة المايا إلى أي عدو خارجي، وإنما هي ثغرات في بنيان هذه الحضارة نفسها كانت كفيلة أن تحيل هذا الهرم العملاق المتمثل في حضارة المايا إلى حِفْنة من تراب لا أكثر.

لذلك، فإن نصيحتي لك في أثناء البحث عن ذاتك واستكشاف أغوارها أن تطبق الفكرة التالية:

"ستجدها حتماً متى احتجت إليها."

رفض الأمور التافهة

إن الرفض بشياكة وذوق ليس كل ما في الأمر. ولذلك، لا تقلل من هدف مؤلفي الكتب الخاصة بتطوير الذات أو إصرارهم على أن يبيعوا لك شيئاً لملء تلك البيضة الجوفاء أو تلك الذات الهشة. إنهم يعلمون جيداً أن كثيراً مما

يبيعونه غير ذي قيمة؛ ولذلك فإنهم يحاولون جاهدين تحقيق أقصى استفادة من القليل الجيد الذي يقدمونه.

لقد قابلتني سيدة ذات مرة، وقالت لي في نظرة من الخيلاء والثقة الزائدة: "إن كل امرأة ملاك يمشي على الأرض". وفي الواقع، فإن نظرتها المتعالية جعلتني أعتقد للحظة أنها قرأت ذلك الكتاب الذي بعنوان: Women Who Run with the Voles While They Wait for the Wolves to Return Their Call.

دعونا نتعامل مع هذا الوصف بحكمة أكبر: إذا كانت كل امرأة ملاكًا يمشي على الأرض، كما قالت هذه السيدة، فماذا يعني ذلك؟ ألا يعني ذلك أن كل النساء سواء؟ لا بد أن كلمة "ملاك" ليس لها دلالاتها الخاصة. فإذا كانت هذه السيدة ترى نفسها ملاكًا بكل ما للكلمة من دلالات جيدة، فلماذا لا تتشبث إذن كل النساء بهذا الوصف وتجعله واقعًا ملازمًا لهن؟

واستطردت هذه السيدة حديثها قائلة: "لماذا تتعامل بهذا المبدأ الذكوري الواضح وتطبقه على الخبرات والتجارب الاستثنائية؟" وفي الواقع، فلم أدرك ما المقصود بكوني أتعامل مع تجربة استثنائية، ولكنني - على أية حال - استطردت معها في الحديث.

لقد أصررت أن أعقب على حديثها على الرغم مما اعتراني من صداع شديد: "لا شك أن هناك مجالاً للتطوير والتحسين حتى في هذا العالم الملائكي، وإلا فما أهمية كتب تطوير الذات التي تقرئينها؟ هل ثمة مستويات مختلفة من الملائكية؟ بمعنى آخر، هل هناك ملائكة عاديون، وملائكة خارقون للعادة مثلك؟"

أومأت السيدة برأسها إيماءة خفيفة، ثم قالت: "من الواضح أنك لا تعي مفهوم الحكمة غير العقلية".

لعله اتضح لك - عزيزي القارئ - من عبارتها الأخيرة أنها تسعى إلى حوار لا أساس له من الصحة أو المنطق. وأظنك توافقني الرأي إذا قلت لك إن هذا النوع من البشر هو أبعد ما يكون عمن يمكن أن نبتغي فتح حوار أو نقاش

معهم. فإذا أراد "نيل دونالد والش" أن يؤلف كتابًا يتحدث فيه إلى ملاك، واختار التحدث إلى هذه السيدة، لكان باع منه نحو أربع نسخ. وما كان الكتاب ليكون أسوأ حالاً من كتب أخرى عديدة على هذه الشاكلة، ولكن هذا الأمر يجعلنا نستنتج شيئًا: "ليست الجودة هي السبب وراء بيع كتب تطوير الذات. وهذا ما أتمناه".

إن الفكرة هنا تتلخص في أن هذه النوعية من الكتب عادةً ما تحتفي بالهُراء وسفاسف الأمور التي لا يستطيع إنسان كائنًا من كان أن يستفيد منها شيئًا. ولا أدري إذا كنت قد قرأت يومًا كتابًا بعنوان: All I Really Need to Know Learned in Kindergarten وهو يتناول فكرة أن كل ما احتاج المؤلف إلى معرفته تعلمه في مرحلة الروضة. وأتمنى حقًا ألا تكون قد قرأت كتابًا بهذا المفهوم الأحمق. لقد كان هناك ذات يوم شخص غبي يدعى "روبرت فالغام" لجأ إلى استخدام غابة كثيفة من الأشجار ليغذي ذاكرته الشعورية للحديث عن ألوان "كرايولا كرايونس"، واستخلص دروس الحياة والإلهام – ولا أمزح في هذا – من خيوط العنكبوت.

ما كان من الممكن أن يقولها واضحة وصريحة أكثر من ذلك: إذا قرأت كتب تطوير الذات، فأستطيع أن أخبرك بأمور يمكنني أن أخبرها طفلاً في الرابعة وتكون سعيداً وممتنًا لي. والاختلاف الوحيد بين طفل في الرابعة وبينك أنك ستضع يدك في جيبك كي تخرج بعضًا من المال الذي كسبته من كدحك وعملك لشراء الكتاب.

لا أريد حتى بدء الحديث عن تلك الرأس المضحكة الأخرى، التي يدعى صاحبها "ديباك شوبرا". عندما سمعت اسم "ديباك شوبرا" لأول مرة، اعتقدت أنه أحد مطربي "الرَّاب" القاطنين في ولاية "لوس أنجلوس". وبعد ذلك قرأت أحد كتبه، وأدركت أنه بصرف النظر عن أعمال "ديباك شوبرا" في مجملها، فإن عمل حياته المتمثل في "توباك شاكور" كان مثالاً للرأي الراجح والنصيحة الشافية

والجمال والثراء العاطفي. إنني لا أود السخرية من زملائي الكتّاب، ولكن "ديباك شوبرا" ليس كاتباً زميلاً، إنه ببساطة مشروع كاتب من المرجح أن يفشل.

إليك – مثلاً – هذه الجملة للتفكير فيها: "إن الفرق الوحيد بينك وبين الشجرة يكمن في محتوى ما بجسمك من معلومات وطاقة". كما قال "شوبرا" صاحب الملاحظة القوية.

إن ذلك أيضًا هو الفرق بيني وبين الشجرة وبين جورج بوش الابن، بل لعله أيضًا ليس الفرق الوحيد؛ فالشجرة لها أوراق تمتص الماء من التربة، وتبول الكلاب تحتها. وأعتقد أن جورج بوش الابن أشبه بالشجرة. وإذا تخيلت أن كتب تطوير الذات مثل الشجرة، فلك إذن أن تستشعر مدى الصعوبة في أن تؤلف كتاباً تنتقد فيه كتب تطوير الذات؛ وذلك لأنه عندما يتعلق الأمر بهذه النوعية من الكتب، تجد الخط الفاصل بين الهجاء وتقرير الواقع يتلاشى كالخط المرسوم على الماء.

الفصل الخامس

مَنْ الذي حرَّك مفاتيحي من هنا؟

حتى هذه اللحظة، لعلك تتساءل: "لماذا سُمِّيَ الكتاب بهذا الاسم؟ فلم أرَ فيه على الإطلاق أية إشارة إلى قطعة الجبن، ولماذا قد يرغب أي شخص في تحريك قطعة جبن؟ ماذا سيجني من وراء ذلك؟

إن الإجابة بسيطة للغاية؛ فعلى عكس ما قد يذهب إليه بعض المغرضين المشككين من أن الكتاب حمل هذا الاسم بهدف استغلال شهرة كتاب آخر حقق أعلى المبيعات في مجال كتب تطوير الذات، يكمن الهدف من تأليف هذا الكتاب في تقديم النصيحة للقارئ في كيفية التكيف مع التغيير. إن التكيف مع التغيير موضوع مهم هذه الأيام، وأعتقد أنني على دراية بكل أبعاده وأتفهم مخاوفك. إذا كنت مثلي وقرأت هذا الكتاب، فأعتقد أنك تقدِّر مدى الانزعاج الذي يعتريك كل صباح لمجرد تغيير مكان المفاتيح – مثلاً – ويجعلك تصرخ قائلاً: "مَنْ الذي حرَّك مفاتيحي من هنا؟"

لنكن أمناء مع أنفسنا ونعترف بأننا لا نهتم بالتغييرات الكبيرة التي تحدث في حياتنا. فماذا عساك أن تفعل إذا اضطرت شركتك التي كانت متخصصة يوماً في تصنيع أدوات خاصة بذوي الحاجات الخاصة، أمام قوى السوق المتزايدة اليوم، للدخول في مجال تصنيع البوابات الأمنية مثلاً؟ إن ما ستفعله ببساطة أمر من اثنين: إما أن تواكب التغييرات الجارية، أو أن تترك الشركة وتجلس في بيتك تشاهد التليفزيون إلى أن يأتي اليوم الذي تصارح فيه نفسك بأنك أردت دوماً أن تعمل في مهنة أخرى. إنه قدرك، وما من أحدٍ غيرك يملك القدرة على إخبارك بما يمكن أن تفعله ويُحْدِث معك فرقًا كبيراً.

ولكن، ليست الأمور الكبيرة وحدها هي التي تبعث على الضغط والتوتر. فالأمور البسيطة أيضاً لها التأثير نفسه – مثل الإسراع بالخروج من المنزل

قبل ساعة ذروة المواصلات الصباحية فتجد أن شخصًا نقل مفاتيحك من مكانها. إنها أمور تحدث معي دائمًا. إنني أضع مفاتيحي حيث يمكنني أن أجدها، كأن أضعها في جيب البنطلون الذي كنت أرتديه أمس، أو بين وسائد الأريكة، وفي الصباح، لا أجدها مطلقًا. ثمة شخص نقل مفاتيحي من مكانها.

إن هذه الأمور تثير الغضب، ولكن ما يثير غضبي أكثر هو عندما تقول زوجتي: "لقد أخبرتك مئات المرات أن تعلق المفاتيح على علاقة مفاتيح؛ حتى يتسنى لك معرفة مكانها عند مغادرة المنزل".

وبالطبع، أجد نفسي أقول: "ليست لديَّ علاقة مفاتيح؟ هل رأيت يومًا علاقة مفاتيح؟ بالطبع، لا.. ولهذا السبب فإنني لا أمتلك واحدة".

لكن زوجتي تعود لتقول لي: "حسنًا! يجب أن تشتري واحدة. على أية حال، انظر إليّ؛ فليست لدي أية مشكلة في العثور على مفاتيحي".

وبسبب ذلك، فإنني كثيراً ما أتأخر في الخروج من المنزل؛ لأنه إلى جانب البحث عن مفاتيحي، أبحث عن مفاتيح زوجتي سراً وأخفيها في مكان ما بحيث لا يمكنها العثور عليها بسهولة، ودون أن تلاحظ أنني أفعل ذلك. هذا صحيح، إنني أحرك مفاتيحها.

(إنها بالطبع خطة غير مجدية؛ فالنساء لديهن هبة خارقة للعادة لم يحظَ بها الرجال؛ ففي إمكانهن العثور على الأشياء التي يفقدنها بمجرد نظرة خاطفة، تمامًا مثل النادل الذي في إمكانه متابعة أكثر من طلب في وقت واحد دون الخلط بينهم.)

فلا يجوز - مثلاً - أن تطلب مني ألا أتضايق وأقلق بسبب الأمور البسيطة التي أتعرض لها؛ وذلك لأن القلق بسبب توافه الأمور هو ما يجعلنا أشخاصًا طبيعيين. ومن ثم، فإذا لم تكن لدينا القدرة على الشعور بالحزن والإحباط لهزيمة المنتخب القومي في بطولة عالمية أو حتى محلية، فسوف تظل

طاقة الإحباط كامنة داخلنا في انتظار التنفيس عن نفسها في مشكلة أكبر، مثل ظاهرة الاحتباس الحراري أو جريمة صيد حيتان المنك.

إذا لم تكن زوجتي جالسة مع صديقاتها تحتسي الكابتشينو، وتقول: "هل أخبركن بأكثر شيء لا أستطيع تحمله؟ إنني لا أستطيع تحمل عادته السيئة في عدم وضع المفاتيح في نفس المكان عند العودة إلى المنزل". بل وربما تشعر بمزيد من الحرية، فتقول: "أتدرين أيضًا ما الشيء الآخر الذي لا أحتمله؟ إنني لا أحتمل تظاهره كل صباح بالذهاب إلى العمل، في حين أنني على يقين أنه يذهب للجلوس على أحد المقاهي مع أصدقائه، يدخن السجائر ويحتسي الشاي".

إن ما أود أن أقوله إن المقصود بالمفاتيح هنا ليس بالضرورة المفاتيح بعينها؛ فقد تكون قلمًا أو ورقة مهمة أو نظارة أو غيرها، فكلها أشياء قد تضيع منا ولا نعثر عليها بسهولة لسبب أو آخر.

على أية حال، فها أنا ذا أقولها لك صراحةً: "افتح ذراعيك للحياة، وتعامل بصدر رحب مع المشكلات الصغيرة؛ فالمشكلات الصغيرة يمكن حلها ولا تجني منها سوى أنها تشتت ذهنك وتشغلك عن مشكلات كبرى هي كفيلة في حد ذاتها أن تشعرك بالإحباط واليأس وتعرقلك عن فعل أي شيء ذي معنى.

وعن نفسي، فإنني أرى أن العادة جرت على تقديم هذه الدروس في شكل حكاية رمزية مفيدة. دعنا نقُل - ومرةً أخرى أؤكد أنني لا أقصد أي كتاب بعينه من كتب تطوير الذات الأكثر مبيعًا - إن هناك أربع شخصيات تعيش في متاهة، اثنان منهما فئران؛ لأن الفئران تعيش في متاهات، والآخران عبارة عن شخصين - قزمين ضئيلَي البنية تقريبًا في حجم الفئران. (قد يبدو هذا الوصف غير واقعي بالنسبة لك). تبدأ أحداث القصة ونحن نرى أن كلا الشخصين وكذلك الفأرين سعداء جدًا؛ لأنهم يحصلون على ما يكفيهم من الجبن دائمًا. نعم .. أخيرًا ذكرت الجبن!

ولكن، إذا بهم يستيقظون في يوم من الأيام ليكتشفوا أنه لا يوجد المزيد من الجبن. بالنسبة للفأرين وبما أنهما فأران، فقد سارا في المتاهة ووجدا جبنًا جديداً، على الرغم من أنني أشك أنه الجبن القديم نفسه ولكن نقله شخص ما إلى مكان مختلف. أما بالنسبة للقزمين اللذين من المفترض أنهما بشر، فقد جلس كل منهما يشكو حظه ويحاول أن يكتشف ما حدث للجبن الخاص به.

الآن، ربما تظن أن المغزى من هذه القصة الرمزية هو: تقبل التغيير والتكيف مع الظروف الجديدة التي لا يوجد فيها جبن؛ والخروج إلى المتاهة والبحث عن الجبن الخاص بك. إذا ذهب تفكيرك إلى هذا المغزى، فاعلم أنه قد جانبك الصواب إلى حد كبير. فهكذا يفكر الفئران، وهذه هي طريقتهم في حل الأمور.

دعونا نتفق - أعزائي القراء - على شيء مهم: "هل نحن فئران أم بشر؟" لأن السؤال الفعلي الذي يطرح نفسه هنا هو: "مَنْ الذي حرّك مفاتيحي؟" (أو في ضوء القصة الرمزية التي قمنا بسردها توًا: مَنْ الذي حرّك قطعة الجبن الخاصة بي؟" لأنه إذا كان هناك شخص بعينه يحرك قطعة الجبن وينقلها إلى مكان آخر، فمن غير المحتمل أن يكف عن ذلك فجأة. فطالما أنه قد جرّب شعور الاستمتاع بتحريك قطعة الجبن، فما من شيء سيوقفه عن تحريكها مرارًا وتكرارًا. لا سيما وأن أحداً لم يوقفه منذ البداية. وعليه، فسوف يستمر في مضايقتك، بل ويستمتع بها.

إذا ظللت مصراً على تعقب قطعة الجبن والجري وراءها، فستكون بمثابة من يدعو نفسه للدخول إلى عالم من التعب والألم. أتتذكر "إكسام" والفيل الصحراوي؟ فكِر في الفيل الصحراوي على أنه قطعة الجبن. فقد تمشي بخطى متثاقلة ومجهدة متعقباً الفيل الصحراوي طول عام كامل، وعندما تجده تجد نفسك حائراً فيما يمكن أن تصنعه به. إذا كنت لا تستطيع العثور على قطعة الجبن الخاصة بك، انتقل إلى البحث عن شيء آخر.

ابحث عن شيء آخر تستطيع التظاهر بأنه مهم، فمجرد تظاهرك بأنه مهم سيجعله كذلك. إن ما يهم فعلاً ليس الشيء وكينونته، وإنما نجاحك في العثور عليه. ولذلك، كان الجبن كافياً لأن يكون رمزاً في هذه القصة حقاً.

تنكر: الأهداف يمكن أن تتغير؛ والنجاح يمكن أن نصنعه. وأي شيء يمكن تلفيقه ثم إضفاء صفة الواقعية عليه.

ولكن، عودةً إلى القصة الرمزية. كما قلت، يعتبر تصرف القزمين طبيعياً وصحيحاً إلى حدٍ كبير. فالتصرف الصحيح في هذه الحالة أن تحاول معرفة الشخص الذي حرَّك قطعة الجبن؛ لأنك إذا استطعت معرفته، ستتمكن ببساطة من ربطه بوثاق وإجباره على إخبارك بالمكان الذي خبَّأ فيه الجبن، ثم الاستعانة به بعد ذلك في سرقة الجبن الخاص بالفئران وإحضاره إليك.

ذلك هو السبب الذي يدفعني في كل مرة لا أجد فيها مفاتيحي في الصباح إلى الوقوف في حجرة الجلوس والصياح بأعلى صوتي: "من الذي حرّك مفاتيحي من مكانها؟ سحقاً له، هل حركتِ مفاتيحي من هنا؟" لقد وجدت في ذلك تصرفاً مفيداً وسديداً مع لوم زوجتي الدائم لي بأنه خطئي، وأنا المسؤول عنه.

إذا واظبت على ذلك لفترة، سوف تكف عن إلقاء اللوم عليك، بل وربما تبحث في أرجاء الحجرة حتى تعثر على المفاتيح في قاع حوض السمك؛ حيث وضعتها ليلة أمس عند عودتك إلى المنزل في ساعة متأخرة. وذلك لأنك ارتأيت بعد تفكير عميق أن حوض السمك زجاجي، ومن ثم يمكن رؤية المفاتيح بسهولة من أية زاوية في حجرة الجلوس. وعندما تعثر عليها، سوف تشير إليها بوجه عابس وتقول بصوت تملؤه السخرية: "نعم، إنك محق يا عزيزي، فقد حركت مفاتيحك من مكانها بالفعل".

وعن نفسي، فإن الأمر لا يعنيني كثيراً. فلتسخر كيفما تشاء. على الأقل، ستكف عن لومي؛ بل والأفضل، سأجد مفاتيحي دون جهد!

الآن بعدما حصلت على مفاتيحي وأخذت وقتًا كافيًا للتفكير وتأمل الوضع، أتساءل هل نجحت قصتي الرمزية في إيصال الفكرة؟ أو حتى هل لها أية صلة بما أحاول توضيحه؟ في الحقيقة، لا أستطيع أن أخدعك - عزيزي القارئ - فلست بالمهارة الكافية في الاستعانة بقصص رمزية بسيطة من هذا القبيل، فأي شخص اشترى هذا الكتاب آملاً أن يجد فيه ما يساعده في تطوير ذاته، أتخيله الآن جالسًا بمفرده يمزق صفحات الكتاب إربًا إربًا لاستخدامها كمنديل مائدة أو فوطة مطبخ.

لن يكون هذا دفاعي إذا قصد بابي أشخاص ساخطون من الكتاب، ولكن رأيي بسيط: إذا كنت حقًا في حاجة إليّ أو إلى أي شخص كي يلفّق لك حكاية رديئة تتضمن هذه الأفكار الملتهبة مثل: "التغيير يحدث" و"يجب أن تتكيف مع التغيير متى حدث" و"إذا لم تتحرك مع التغيير، فسوف تظل متخلفًا عن الآخرين"، فاعلم بكل صراحة أنك لم تكن تستحق وظيفتك في المقام الأول. وحتى لا نضر بالاقتصاد، فلا يجب أن تحصل على أخرى.

هذه نصيحتي للتكيف مع التغيير: احتفظ ببرطمان صغير على طاولة المطبخ، وكل ليلة عندما تعود إلى المنزل، متى أخفيت مفاتيحك، ضع فيه أكبر عملة معدنية معك. وأقترح أن تتبرع بهذه العملات المعدنية للمحتاجين أو تعطيها لحارس السيارة. وعن نفسي، فغالبًا ما أفعل ذلك، ولعل هذا ما يفسر السبب في تكرار سرقة الراديو من سيارتي. لقد كان صديقي "شانكو" يخفي القطع النقدية الفائضة معه في جوربه الرياضي، حيث يخفيه أسفل الوسادة لحمايته ليلاً. إنه يحتاج إليه لا تزال زوجة "شانكو" عاجزة عن مسامحته على محاولة لفت نظر السيدة المتجهمة في المتجر.

تذكر: التغيير حتمي، ولكن إذا لم نتعامل معه بشكل جيد، فسوف تزيد العملات المعدنية التي تحتفظ بها في محفظة الجيب الخاصة بك، وسيحدث انتفاخًا قبيحًا في بنطلونك.

الفصل السادس

أكون أو لا أكون

بين الوجود والعدم

من أكثر الأمور التي تثير القلق لدى الشباب اليوم النصائح غير المنطقية التي يسديها باستمرار اختصاصيون في إسداء النصائح، أو أصدقاء وأقارب مخلصون ولكن مضَلّلون.

إن النصيحة مثل آلة التزلج البطيئة، التي يتم استخدامها في ألعاب الأيروبكس، قد تشتريها وتستهويك لفترة، دون أن تستقطب انتباهك بشكل حقيقي، ثم تعطيها لشخص آخر. وهذا هو ما يحدث عادةً مع النصيحة أو مع آلات الأيروبكس؛ لأنك لا تسعى مطلقًا إلى استخدامها بنفسك.

ما أكثر النصائح الواهية التي تصطدم بها في حياتك. على سبيل المثال، هناك المخزون الثقافي الذي مفاده التأكيد على ضرورة الأخذ بحكم ونصائح الأجيال السابقة، إنها حكم بالية توارثناها وظلت موجودة لقرون عديدة. إننا نتلقى هذه النصائح القديمة بتجاهل وتخاذل ثم نمررها إلى الجيل الذي يلينا كما لو كانت علبة عصير صدأة، ثم يلتقطها ويتجاهلها ثم يمررها بدوره إلى الجيل الذي بعده.

لماذا يصر البعض على تقديم نصائح غير واقعية، أو فيها قَدْرٌ كبير من المبالغة، إذا قورنت بالواقع الفعلي الذي يشاهده الناس ويلمسونه في حياتهم؟ وماذا في اعتقادك يدفع الأب والأم إلى أن يقولا لطفلهما إن الإناء الذي تقف بجانبه لن يغلي أبدًا؟ إن هذه أسرع طريقة لتحطيم أسطورة أن الآباء معصومون من الخطأ. إن كل ما يحتاجه الطفل الصغير إناءٌ وقليلٌ من الماء ومصدر تسخين وعينين حتى يكتشف أن كل ما قلته هراء ولا أساس له من الصحة.

ولا يقف التزييف عند هذا الحد؛ بل نجدهم يقولون أيضًا إن من يضحك في النهاية، لا يضحك كثيرًا؛ لأنه عادةً ما يتوقف عن الضحك فجأة وتعلو وجهه نظرة ارتباك وحيرة. وفي المرة القادمة، عندما تشعر بالرغبة في ترديد عبارة: الحجر الدائر لا تعلق به أية طحالب، ألقِ نظرة على أسنان "كيث ريتشارد". والأكثر من ذلك، إنني سأندهش إذا هطلت الأمطار في إسبانيا على السهول بصفة أساسية. فهل لدى إسبانيا في الأساس أي سهول؟ لعل بها، ولكنني زرت المكان الخطأ.

أعتقد أن الأمر لا يستحق الحصول على خريطة أرصاد جوية لإسبانيا. إن ما أقصده هنا أن الناس تتهافت على إسداء النصائح العرضية والعابرة غير مكترثين بالحقيقة. كم مرة قال شخص لك: "تفاءل وابتهج؛ فالأمور سوف تتحسن"؟ إن هذا النوع من عدم الأمانة الواضحة لا يخلو من الإهانة. فإذا كانت الأمور كلها تشترك في حقيقة واحدة يمكن أن نتفق جميعًا عليها، فمن المؤكد أن هذه الحقيقة هي أن الأمور تتحول من سيئ إلى أسوأ. وحيث إن الفرص لا تأتينا كاملة، بل هي في أغلب الأحوال أنصاف فرص لا أكثر، فلك أن تتخيل كيف تتدهور الأمور بسرعة كبيرة.

ثمة نصيحة أخرى كثيرًا ما يروجها أصحاب العقول المشوشة، وهي: "كُن نفسك دائمًا، وتعامل على طبيعتك". هل سمعت من قبل شيئًا أكثر ترويعًا من هذا؟ فالحضارة وجميع معايير اللياقة تتوقع منا ألا نتصرف على سجيتنا مطلقًا. هل قرأت قصة "أمير الذباب"؟ أو تشاجرت مع شخص آخر على آخر مكان لركن السيارة في المركز التجاري؟ تحت مظهرنا المتحضر والراقي يقبع الحيوان بداخلنا.

حتى إذا تركنا الجدال القائم بشأن التربية الفطرية جانبًا، فإن التصرف على سجيتك أمر محفوف بالمخاطر. فالكثير منا، في أعماق نفسه، مكّار ومتسلّل، وأحيانًا جبان وكثير العويل والشكوى .. الكثير منا يعيش حالةً من

التناقض الشعوري والضعف الأخلاقي، ويعيش أسير أفكار أو عادات دفينة ما كان ليعلنها على الملأ تحت أي ظروف. ما الذي يجبرنا أن نكون على هذه الشاكلة؟ ففي عالم مليء بالأشخاص الذين على درجة من الإمتاع والتشويق أكبر بكثير مما نحن عليه، لماذا نظل أسرى أنفسنا وسجناء ذواتنا؟ إذا كان التصرف على سجيتك والعيش على فطرتك بالأمر العظيم حقًّا، فلماذا إذن لا يسعى الكثير من الناس أن يكونوا أنفسهم؟!

إن ما يجعل النصيحة أسوأ أنها عادةً ما تقدم لشخص مقتنع تمامًا بأنه الشخص الخطأ الذي لا ينبغي أن يكون في هذا الموقف بعينه. فإذا طلبت من زوجتك الخروج معك إلى مكان ما، ولم يكن ردها مجرد الرفض وإنما الإصرار على التصريح بأنك لست الشخص الذي تأمل الخروج معه وأنها خدعت في شخصيتك وعاداتك المزعجة، فإن الرسالة الوحيدة التي يجب أن تتعلمها مفادها الآتي: إذا رغبت في أي وقت في الخروج معها، فاعلم أن "نفسك" هي آخر شيء يجب أن تصر على الاحتفاظ به.

والأسوأ من هذا وذاك هي الطريقة التي تسمع بها الناس وهم يطلبون منك أن تكون نفسك وتتعامل على طبيعتك دون أن يفكروا ولو للحظة في طبيعة الشخص الذي يوجهون إليه الخطاب. وأتخيل في هذه الأثناء "جيفري دامر" وهو يقترب من الإخصائي الاجتماعي في المدرسة بسؤالين حول بعض الأحلام المزعجة التي يراها مؤخرًا، والإخصائي يومىء برأسه ويعبس بوجهه ويحاول أن يشعره أنه مهتم ومتابع حديثه فعلاً، وذهنه في الحقيقة مشغول بأمور أخرى، ثم يقول له: "إن أفضل نصيحة أقدمها لك، أيها الشاب، أن تكون نفسك".

في ضوء ما سبق، فإن النقطة الأساسية التي أود التأكيد عليها هنا هي ألا تحاول أن تكون نفسك دائمًا. كن شخصًا آخر إذا استدعى الأمر. على سبيل المثال، إذا كنت "سلوبودان ميلوسفيك"، كن شخصًا آخر ليس مجرم حرب.

إنني هنا لست بصدد الاقتراح بأن تحاول تطوير نفسك أو تحسينها، فهذا أمر يحتاج إلى الكثير من الوقت والجهد، ولا يجدي كثيراً في النهاية، حيث يتركك حبيس ذاتك وما أنت عليه. حاول فقط أن تكون شخصاً آخر لفترة. فالعالم أمامك متنوع ومتباين، ولن يسمح لك بالنجاح إذا أصررت على أن تكون شخصًا واحداً طوال الوقت. وأتذكر هنا مقولة لـ "والت وايتمان" التي يقول فيها: "إنني أحمل الكثير من المعاني". فعندما أسمع هذه المقولة، أعلم - على الأقل - أنه كان "والت وايتمان".

إذا كنت مجرد شخص سطحي وعادي ليست لديك أية مواهب خاصة أو اهتمامات متوهجة وملحة، فاعلم أنك لست الوحيد؛ فهناك الملايين منا في العالم وملايين الملايين سيأتون أيضًا. في الواقع، إنني أرى أنه لم يكن في تاريخ البشرية بأسره أكثر من سبعة أو ثمانية أشخاص فقط متميزين حقًا. وباقي الناس يحاولون تقليد واحد منهم أو أكثر، مع العلم أن هناك درجات متفاوتة من النجاح في هذا التقليد. (أعرف أنك تتوقع مني أن أخبرك بأسمائهم، ولكني من المكر والدهاء الذي لا يجعلني أبوح بأسمائهم، ويكفي أن أقول لك إنه لا أحد من هؤلاء "جون لينين" أو "شيرلي ماكلين" أو أي شخص أعرفه أو تعرفه بشكل شخصي.)

إذا كنت قد أتقنت فن التعامل مع بيضة النعامة الخاصة بك، فلا شك أنك أدركت الآن أن كل الأمور ممكنة. بمعنى آخر، فإن كل الأمور تحتمل الزيف، وتستطيع أن تكون أي شخص تريد أن تكونه.

هل تريد أن تكون "أوبرا"؟

"تستطيع أن تكون أي شخص تريد أن تكونه." عندما كتبت هذه الكلمات، أدركت أنها تبدو مألوفة، وبعدها تذكرت أمراً: لقد اعتدت سماع هذه الكلمات في برنامج "أوبرا وينفري" طول الوقت. فالمعروف عن "أوبرا" أنها شغوفة بالتأكيد على حقيقة أن المرء يمكن أن يكون أي شخص يرغب، بصرف النظر عن مدى الفقر أو الاضطهاد أو العنصرية التي قد يتعرض لها. وفي الواقع،

فإن السبب في ذلك ربما يرجع إلى رغبتها في تذكيرك كم كانت فقيرة ومضطهدة وتتعرض للعنصرية، شأنها شأن غيرها من السود في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنها أصبحت الآن تتصدر قائمة الأثرياء في العالم.

في الواقع، إنك عندما تستمع إلى "أوبرا" وهي تتحدث عن هذا الموضوع، تعتقد أنها لم تكن لتهرب من طفولتها البائسة إلا من خلال تحرير معصمها من القيود والهروب مع أخواتها قبل الوقوع في شرك الرق والعبودية من خلال بيعهم إلى أحد البيض الأغنياء في ولاية "المسيسيبي". وعن نفسي، فإنني كثيراً ما أردت أن أذكِّر "أوبرا" أنها تتقمص فقط دوراً في قصة من تأليف "أليس ووكر"، وأنها لا تعيش وسط أحداث القصة أو العصر الذي جرت أحداثها فيه.

يحتوي برنامج "أوبرا" على فقرة بعنوان "تذكر روحك". ماذا تعني هذه العبارة؟ هل من المنتظر أن تجد نفسك في رحلة جماعية عبر الصحراء، حاملاً أغراضك وخيمتك وقائلاً لرفاقك: "دعونا نبدأ الآن، هاهو الكشاف، وعيدان الثقاب المضادة للمياه، وطارد الأفاعي، وأغطية الأرض.. قل لي أين روحي؟ ها قد نسيت روحي مرة أخرى؛ من الذي حرّك روحي من هنا؟"

هل ستصمت حتى تجد نفسك تواجه السؤال الأخير في برنامج من سيربح المليون؟ والمذيع يقول لك: "هل تستطيع أن تحدد الجزء الذي لا يفنى فيك، والذي سيعيش حتى بعد الموت؟" وهل ستسير – بعد ذلك – شاحب الوجه متذمراً، وتقول لنفسك: "لا أصدق أنني نسيت روحي، لا أصدق مطلقًا"؟

ولكن، يجب أن ترجع الأمر إلى "أوبرا"؛ فقد تعاملت مع بيضة النعامة الخاصة بها "ذاتها الداخلية" بمهارة وذكاء. انظر كيف تحافظ على وجه صادق وأمين في الوقت الذي تقول فيه لعالم من محبي البقاء في المنزل، غير السعداء، إنهم – بقليل من الإيمان والجلد – يمكن أن يصبحوا هي. وهذا أمر صحيح – عزيزي القارئ – إذا اهتممت بسعادتك وراحتك، يمكن أن تكون غداً أحد الأشخاص الذين تستضيفهم "أوبرا" ويظهرون في البرنامج إلى جوارها.

هذا هو ملخص ما تخبر به "أوبرا" جمهورها، ولا يطرف عيناها للحظة وهي تقول ذلك. إنها تنظر إلى عيونهم مباشرةً وتخبرهم بأمر من غير الممكن أن يصير حقيقة، وكم يحبونها لذلك! إنه أمر غير ممكن؛ لأنه لا أحد يمكن أن يكون "أوبرا"؛ لأن "أوبرا" نفسها ليست "أوبرا" التي نعرفها. فـ "أوبرا" التي نراها على الشاشة ما هي إلا مجرد فكرة جاء وقتها لتظهر. أما "أوبرا" الإنسانة، فقد كانت على قدر كبير من الذكاء مكّنها من تبني الفكرة وإضفاء صبغتها الخاصة عليها.

إن "أوبرا" ببساطة لا تحضر شخصيتها الحقيقية معها إلى البرنامج، كما أنه ليس لديها أي شيء في الواقع لتتحدث عنه مع ضيوفها المشهورين. غير إشاراتها العابرة إلى ضيوف آخرين من المشهورين. فكل ما تفعله أنها تندفع مع التيار وتترك تلك القوة الدافعة لفكرة أنها "أوبرا" لتمسك بزمام الأمور. إنها تؤدي بالضبط دور بيضة النعامة، وتترك للجمهور مسألة ملئها وتعبئتها بما يفضل تخيله.

أنت أيضًا تستطيع أن تكون مثل "أوبرا"، ولا أقصد بذلك أن تأكل المزيد من فطائر الكريمة بالموز أو المزيد من البرغل المجفف. إن ما أقصده أنك تستطيع أن تترك العنان لنفسك وتندفع مع التيار كما تفعل هي تمامًا. وفي الواقع، أنا لا أراها تترك العنان لنفسها مطلقًا، وإنما أراها قابعة في مكانها، ولكنها تترك العنان لنفسها بفطنة وحكمة. إنها تترك العنان لنفسها بطريقة غير ظاهرة، وعلى النقيض تمامًا مع فكرة التصرف على طبيعتك.

إن "أوبرا" تحتضن بيضتها، وعلى الرغم من أنها تبدو كما لو كانت الشخص الذي يملأ البيضة وتاجر الهُراء، فلا يزال في استطاعتك الشعور بيقين أنها في داخلها شخص نتمنى أنا وأنت أن نصبح مثله. فعندما تجلس أمام الكاميرا، فإنها لا تفكر في الملائكة والروحانيات. إنها تفكر فيمن ستستأجره لكتابة كتابها القادم في تطوير الذات، أو في شراء طائرة خاصة تغنيها عن الجلوس إلى جوار كل هؤلاء الأشخاص الذين لا يختلفون كثيرًا

عنها. إنها تحاول أن تتظاهر بغير ذلك، ولكن يمكننا جميعًا أن نرى ما في داخلها. وهذا ما يجب أن يكون حقًا.

أتدري عزيزي القارئ، إن مجرد التفكير في "أوبرا" يشعرني بالجوع. فأنا دائمًا أربط بينها وبين الطعام؛ لأن لديّ صورة لها وضعتها على باب الثلاجة عندي، مع رسالة مكتوبة بتلك الأحرف الممغنطة التي يستخدمها الأشخاص المزعجون لنظم أبيات من الشعر الشنيع.

أظن أنهم يكتبون هذا الشعر كي يجعلوني أعدل عن الاقتراب من ثلاجاتهم. وفي الواقع، فلا شيء في الكون أبشع من هذا الشعر الذي يكون مجرد خواطر مبتذلة، وصفتها بالشعر على مضض؛ فهو ليس أكثر من جيشان عاطفي وثورة انفعالية صارخة، لا تزيد عن مجرد أربع إلى خمس كلمات. ومهمتي أن أظل أحارب وأناضل كي أنبه هؤلاء الأشخاص، وأصرخ في وجوههم: "انظروا، هذه ورقة وقلم. إذا كنتم ستكتبون شعرًا، فلتجلسوا وتكتبوه بالشكل اللائق. وعندما تنتهون من كتابته، اخفوا الورقة في درج أو في مكان حيث لا يمكن – ولو بالصدفة – أن يراه أو يقرأه أي زائرين يأتونكم فجأة.

وأريد أن أضيف إلى ذلك أيضًا: "وبالمناسبة، فإن وضع ثلاث كلمات بجوار بعضها البعض وجميعها تبدأ بالحرف نفسه لا يجعلها شعرًا".

ولكنني لا أتحدث عن الشعر الذي يلصق على الثلاجة. إنني أتحدث عن الرسالة الموجودة على ثلاجتي تحت صورة "أوبرا"، والرسالة هي:

"إنَّ السمنة ليست عائقًا أمام النجاح، طالما كان في إمكانك تزييفها".

وهذا أعطاني فكرة الموضوع الذي سأتحدث عنه في الفصل القادم.

الفصل السابع

القوام المشوق

إنَّ التحدث عن القوام المشوق دائمًا ما يكون موضوعًا حسَّاسًا ومقلقًا. وفي الواقع، فإنني لم أُخفِ يومًا رغبتي في العيش حياةً سلسة، خالية من المشاكل، وتجنب أي شيء يستثير حفيظتي ويدفعني إلى الغضب. ومع ذلك، فأنا بشر، ومعرّض للخُيلاء والتصرف على نحو ضيق الأفق.

في الماضي، كنت أشعر بالخزي من القرارات المتسرعة التي آخذها. ولكن، سرعان ما تغيرت الأمور. وكانت البداية في جلسات "الجيم" عندما تم إقناعي بخلع قميصي أمام باقي الأعضاء. إنني لست من هواة "الجيم"، وفكرتي عن التدريبات الرياضية غير الضرورية تتلخص في الأكل في المقصِف. وما يحدث عندما أصل إلى البيت في وقت متأخر من الليل، وأنا مرهق للغاية ولكن مضطر إلى البحث عن بعض الأغراض المهمة، ومن ثم فإنني آخذ في الدوران هنا وهناك. وحتى الآن، لم يحدث قط أن دار حوار بيني وبين أي شخص – كائنًا من كان – في أيٍّ من جلسات "الجيم". فالناس هناك يبدون أكثر نحافةً وقوة مني، وهو أمر يرعبني ويجعلني أكرههم. وعلى الجانب الآخر، أعتقد أن هناك أناسًا شكل أجسامهم أسوأ من جسمي، ولكن من يرغب على أية حال في التحدث مع البدناء.

ومن ثم، فقد راودتني فكرة ممارسة التدريبات الرياضية في المنزل، ولكن ليس لفترة طويلة. فمجرد التفكير في ممارسة التدريبات الرياضية في المنزل يضر بكثير من العادات التي أعتز بها كتناول الحلوى والطعام أمام التليفزيون أو وأنا متكئ على الأريكة. كما أنني لست من محبي القيام بأعمال الصيانة المنزلية أو الأعمال الغريبة. فعندما احترق المصباح الكهربي في غرفة نومي، جررت سريري إلى المطبخ وقرأت على ضوء الثلاجة الأصفر الخافت لمدة شهر. وكان الأمر مريحًا، إلا أن النوم غلبني ذات مرة فنسيت أن أغلق باب الثلاجة واستيقظت وعيناي مغلقتان تمامًا من شدة البرد ولساني ملتصق بأحد أعمدة السرير.

(قد يوجد بينكم من يتعجب قائلاً: "أليس نقل سرير وتحريكه من مكان إلى آخر أكثر إجهاداً من تغيير مصباح كهربي تعرّض للتلف؟" قد لا يجانبكم الصواب في ذلك، ولكن يجب أن تعلموا أنني فعلت هذا لغرض معين، وهو أنه ليس هناك حدوداً لما يمكن أن أفعله لحماية طبيعتي الكسولة.)

وجديرٌ بالذكر أنّ مجال صناعة الأجهزة الرياضية الصالحة للاستخدام المنزلي لا يزال يستحوذ على اهتمام الكثيرين. وإحقاقًا للحق، فقد حظيتُ بما هو أفضل من قوة الإرادة؛ ألا وهو الحظ الجيد. فالأجهزة الرياضية يتم تسويقها إليك مباشرةً، عبر إعلان تليفزيوني يأتيك في وقت متأخر من الليل. وعن نفسي، فإني لا أثق في هذه الإعلانات المتأخرة؛ لأنني في هذا الوقت أكون في حالة ما بين اليقظة والنوم، ولا أكون في كامل انتباهي.

وقد نجحت يد التسويق في أن تمتد إليّ ذات ليلة، وكنت وقتها في رحلة عمل في "أمستردام". لم أترك غرفتي في الفندق، وإنما جلست أمام التلفاز. ماذا عساك أن تشاهد في التلفاز الهولندي بعد منتصف الليل؟ هل تعتقد أن تشاهد إعلانًا باللغة الإيطالية لأحد الأجهزة الرياضية التي يمكنك استخدامها في المنزل؟

لقد كان إعلانًا تعليميًا يشرح مزايا استخدام جهاز "فيبروماس" الرياضي غير المعروف في بقية أنحاء العالم، وهو جهاز يحدث ذبذبات حول الخصر والفخذ ومواضع تجمع الدهون أسفل الجلد. في هذا الإعلان، تأخذنا سيدة إيطالية كبيرة في السن في جولة عن المنتج، شعرها لونه أصفر برتقالي كالزعفران، وقد رسمت عينيها بمحدد سميك جداً جعلها تبدو مثل الحوت القاتل. ولا أقصد أن أقلل من شأنها أو أسخر منها، ولكنها حقًّا أخافتني.

يبدو أن السيدة الإيطالية كانت تشعر بالسعادة لظهورها على شاشة التليفزيون الهولندي في الساعة الثانية صباحًا، وعبرت عن سعادتها هذه بضربها بعود من البامبو أرداف شابة ترتدي ملابس رياضية.

وقد شعرت بدهشة كبيرة للاختلاف الثقافي الواضح؛ ففي الوقت الذي كانت تحرص فيه الإعلانات الأمريكية على بيان الشكل الذي سيكون عليه الموديل الإعلاني "بعد" استخدام المنتج، جاء الإعلان الإيطالي مطبقًا للفكرة المعاكسة وهي الموديل الإعلاني "قبل" استخدام المنتج. هذا، بالطبع، ما لم نأخذ بالاحتمال المخيف في أن تكون تلك الشابة هي الفكرة الإيطالية لما سيكون عليه الموديل الإعلاني "بعد" استخدام المنتج. على أية حال، فقد شاهدت هذا الإعلان في وقت متأخر من الليل في غرفة فندق في مدينة غريبة، ولم أكن مغيبًا عن الوعي كي أنفق أموالي وأموال أبنائي الذين لم يولدوا بعد على هذه الإعلانات التافهة.

ساعد هذا الإعلان في علاج مشكلة مهمة لديَّ، وهي جنون الشراء، لا سيما بالنسبة للأجهزة الرياضية الصالحة للاستخدام المنزلي. وحلمت بالتغيير. في حين أن الأسوأ من ممارسة التمرينات الرياضية هو اتباع نظام غذائي. فقد كانت النظم الغذائية التي اتبعها غير مجدية على الإطلاق. فقد كنت امتنع عن تناول الأطعمة التي لا أحبها أصلاً.

لم يستمر الوضع هكذا لفترة طويلة، فسرعان ما أدركت الحقيقة وصارحت نفسي قائلاً: ما الذي أفعله؟ هل شرب المياه الغازية منخفضة السعرات الحرارية هو ما سيشعرني بالسعادة؟ هل حلمي في أن أنقص وزني هو كل بغيتي ومرادي في الحياة؟ لا بد أن أكشف عن أغوار نفسي الداخلية. يجب أن أستفيد من فشلي.

قررت أنه كفى من كل شيء. كفى من الوقوع تحت سيطرة حلم الرشاقة والأناقة. كفى من التواري والتخفي والخجل من جسمي لأنه زائد الوزن. إنني إنسان في المقام الأول، ويجب أن أستمتع بحياتي. وإذا كنت أشعر بالسمنة بعض الشيء، فإنني لا أهتم بمن يلاحظ ذلك. كما أنني أسكن على مقربة من الشاطئ، وأستطيع دائمًا أن أرتدي ملابس فضفاضة دون أن ألفت انتباه أحد.

هكذا كنت أروِّح عن ضعف نفسي، بل وأروح عنها بما هو أبعد من ذلك. فأدعو جميع الرجال الأفاضل إلى الوقوف بجانبي. حسنًا، ليس بجانبي بالضبط. على بعد نحو ذراع. إنها مسيرة من أجل التفاخر بالوزن الزائد وستكون مع بداية العام الجديد.

(إنني لن أحضر هذه المسيرة عن نفسي، فلست من هواة هذه الأمور. ومجرد التفكير في مواجهة الناس بعدها يشعرني بالخجل. ولكنها، ستكون باعثًا على المرح على أية حال، كما أنني متأكد من أنه ستكون هناك الكثير من ألوان الطعام والشراب اللذيذة.)

الكثير من الوقت والمال والجهد يتم بذله من أجل الحصول على جسم رياضي وممشوق، فدعونا نتنصل من هذه الأفكار ولا نعيرها أدنى اهتمام. ودعونا نقلْها معًا بصوت مسموع:

"إنَّنا هنا، إننا هناك، إننا في كل مكان، فاعتاد على رؤيتنا".

خاتمة

إن الوقت يداهمنا وأوشك الأوان كي نفترق، شأننا شأن أي شيء في هذه الحياة. فالزهور تفقد بريقها، وحيوان القُندس يأكل الأشجار التي تسد مجرى أكبر الأنهار، وسيأتي الوقت الذي لن نشاهد فيه (جيرمي هارت) وهو يذيع النشرة الجوية بعد نشرة أخبار الثامنة. فهناك موسم لكل الأشياء، وها أنا الآن أشعر بالنسائم الأولى لرياح الخريف. وفي الواقع، فلم يعد في جُعبتي الكثير لأضيفه في هذا الكتاب.

إن العالم أحيانًا يسلك طرقًا غريبة وغامضة؛ فهناك رجل عجوز يعيش في المنزل الذي إلى جوار منزلي. إنه ليس بالجار الذي أقترض ثلجًا منه أو أستعير جريدته.

في الواقع، لم يحدث قط أن دار حوار مطول بيني وبين هذا الرجل العجوز، فدائمًا كنت أعتبره شخصًا تافهًا معدوم القيمة؛ حيث كان يحتفظ بمجموعة من التماثيل على هيئة أوز بالحجم الطبيعي مصنوعة من الجبس والتي كان يبقيها في حديقته. ومن حين لآخر، كنت أشاهده يجلب لها أطباق تحتوي على بسكويت. وفي ليالي الشتاء، كنت أراه يمسك في يده ترمسًا اعتقدت وقتها أنه يحتوي على قهوة، ولكنه في الواقع كان حساءً ساخنًا يقدمه لها. وفي بعض الأحيان، عندما كنت أعمل لوقت متأخر من الليل، كنت أتسلل إلى أعلى سور الحديقة وأخبئ تماثيله أسفل شجيرة، أو أرتبها بأشكال فجة. وكان هذا الأمر يثير غضبه دائمًا ويعكر صفوه. فكان يقفز لأعلى ولأسفل ويصيح بأعلى صوته: "من الذي عبث بطيوري؟" وفي الواقع، فقد كنت أجد في هذا الموضوع قدرًا كبيرًا من التسلية.

باستثناء ذلك، لم يكن ثمة علاقة بيننا. وأحيانًا، كنا نؤمئ برءوسنا لبعضنا البعض عبر سور الحديقة، وكان يقول: "هل سمعت تلك القطط التي كانت تتشاجر في الشارع ليلة أمس؟"

وكنت أجيبه: "لا".

فكان يعقد حاجبيه ويقول لي: "حسنًا، لعلها فقط كانت تلك الموسيقى التي تظل تستمع إليها بصوتٍ عالٍ طوال الوقت". ثم يعود أدراجه إلى الداخل في شموخ وتعالٍ ويغلق الباب خلفه. في الواقع، عندما أفكر الآن في هذه اللحظات، يعتريني إحساس قوي بأنني لم أحب يومًا هذا الرجل العجوز. ولكن في أثناء تأليف هذا الكتاب، حدث شيء غريب أثار فضولي. فذات يوم، شاهدت الرجل العجوز في الحديقة، وهو يقلب كتاب ويقرأ بصوتٍ عالٍ لأوزه. وقرأت عنوان الكتاب فتجمدت أواصري. فقد كان بعنوان Tuesdays with Morrie.

بعد تلك المرة، اعتدت أن أبقى في الداخل. ولكن لم أستطع الاختفاء إلى الأبد. فذلك الرجل العجوز الذي يسكن بجواري – دعونا نطلق عليه اسم "بيل"؛ لأن ذلك اسمه الحقيقي – اعتاد الاختباء بالقرب من سور الحديقة، منتظرًا ظهوري. وفي يوم، أمسك بي وأنا أحمل صندوقًا من الكرتون لأضع فيه الزجاجات الفارغة.

وإذا به يقول لي: "ها أنت أيها الشاب، ما رأيك في احتساء كوب من الشاي معي؟"

فقلت: "شاي؟"

فقال لي، وهو عابس الوجه يحملق في الزجاجات الفارغة: "حسنًا! لنجعله كوبًا من القهوة إذن. هل يناسبك يوم الثلاثاء؟ أعتقد أننا جميعًا أناس يحبون يوم الثلاثاء، أليس كذلك؟"

لم أكن أنوي زيارة "بيل"، ولكن مرت الأيام وجاء يوم الثلاثاء وكنت أسير في حديقتي، وأتساءل كيف لي بكتابة هذه الخاتمة. فالخاتمة – كما أظن دائمًا – يجب أن تقدم حلولاً، أو على الأقل تصريحًا بانحلال العقدة. ولكن لم يكن لدي أي حلول أو قرارات؛ ليس لأنني شخص كسول للغاية لأفكر في الحلول؛

ولكن لأن الحلول والقرارات هي السبب في الفوضى التي عّمت أرجاء هذا العالم في المقام الأول. فعندما تضع أذنك على بيضة النعامة الخاصة بك، تسمع صدى صوت خافت وضعيف يرتد إليك كفقاعات الصودا حال ارتطامها بجدار زجاجة المياه الغازية، وهذا الصوت يقول لك:

"ما من إجابات لما تقول. ما من إجابات لما تقول".

بدأت هذه الأفكار تعتمل في ذهني شيئًا فشيئًا، وقبل أن أدرك شيئًا محددًا، وجدتني أقف بباب "بيل". وإذا به يفتح الباب، مرتديًا ملابس فضفاضة وممسكًا بعكاز في يده كان كثيرًا ما ينسى الاتكاء عليه.

وإذا به يعاجلني بقوله: "مرحبا! تفضل. هل أحضرت معك مسجل شرائط؟ لا؟ حسنًا، يمكنك تسجيل بعض الملاحظات".

كانت خطة "بيل" واضحة. كان ينوي نقل حكمته وخبرته في هذه الحياة إلى العالم. وإذا به يجلس على كرسيه ويفرك أصابعه وهو ينظر إلى السقف كما لو كان ذهنه غارقًا في تفكير عميق.

وبعد ذلك، كان يقول أشياءً مثل: "هل تعلم ما الذي يشغل تفكيري دائمًا؟ إنني أفكر دائمًا في أنه يجب أن نتعلم كيف نسامح أنفسنا قبل أن نتعلم مسامحة الآخرين. وفي رأيي، يجب أن نتقبل الماضي على أنه ماضٍ، دون إنكاره أو نبذه تمامًا. وعلينا أن نتقبل الأشياء التي نستطيع القيام بها وتلك التي نعجز عن أدائها".

في البداية، لم يكن مني إلا أن أومأت برأسي في أدب وقلت: "ممم، حقًا". وأشياء من هذا القبيل التي يتفوه بها الأشخاص عندما لا يجدون ما يقولونه في مواقف معينة. ولكن عندما قال: "إن الحب هو الشيء الوحيد العقلاني في هذه الحياة"، لم أستطع أن أحتمل أكثر من ذلك.

وإذا بي أقول له: "بيل، أليست هذه كلمات 'موري'؟!"

وبالتالي، قرر "بيل أن ينقل لي جزءًا من حكمته الخاصة. ولكن الكثير مما قاله لي سبق أن سمعته من آخرين، ولا سيما من والدي الذي كان خبيرًا في تقديم النصيحة الصائبة. وأذكر من نصائحه - مثلاً - يوم قال لي: "لا تعد أغراضك بنفسك أبدًا طالما أن هناك من يعدها لك"، "لا ترتد الجوارب البيضاء في العلن إلا إذا كنت لاعب تنس أو طفلاً حديث الولادة"، "لا تثق يومًا في رجل قصير القامة".

سرعان ما نفدت حكم "بيل"، وانتهيت من احتساء كوب القهوة الذي في يدي، وبدأت أشعره برغبتي في المغادرة. وإذا به يقول لي في نبرة يعلوها الإحباط واليأس: "يسلك العالم سلوكًا غريبًا في بعض الأحيان". تأملت ما قاله، فوجدته صحيحًا في بعض الجوانب، فما زلت لا أعرف كيف يمكن للضوء أن يكون جُسيمًا وموجة في آن واحد، ولم أستطع يومًا اكتشاف المسار الذي يتخذه الماء عند مروره في خرطوم عندما يكون الخرطوم عند خط الاستواء مباشرةً. واعتقدت وقتها أنه قد تكون لـ "بيل" فائدة على أية حال.

وإذا بي أقول لـ "بيل": "حسنًا، استمر وقل ما عندك". وأمسكت بقلم وتظاهرت أنني أدون ملاحظات على ما يقوله، وأربكه هذا الأمر من جديد. فالعالم قد تحدث به أشياء غريبة، ولكن القول عمومًا أيسر من إعطاء أمثلة واضحة وملموسة.

فإذا به يقول: "لماذا لايرن تليفونك طوال اليوم، ثم في اللحظة التي تجري فيها مكالمة، تتلقى مكالمتين في آن واحد؟"

فقلت: "آهه!"

ثم عاد ليستكمل حديثه: "هل تساءلت يومًا كم سيكون منسوب الماء في المحيط إذا لم ينمُ فيه الإسفنج؟"

تملكتني الشفقة تجاه هذا العجوز المسكين، فقمت من مقعدي ووضعت يدي على كتفه، ولكن لم يرُق الأمر لأيٍّ منّا، فرفعت يدي مرةً أخرى وآثرت الجلوس.

وقلت له بصوت عطوف: "بيل، ليس ثمة قانون ينص على أن كونك عجوزاً يعني أن تكون حكيماً؛ فالحكمة للأشخاص الذين يحاولون بيع الكتب".

نظر "بيل" إليَّ بعيون يملؤها الصمت والعرفان بالجميل. وجلسنا لفترة وكل منا ينظر إلى الآخر. وقلت له: "بيل، إن شعب ماساجيتاي كان ينتمي لشعب إسكيثيون الذي سيطر على الأراضي شرق بحر قزوين عام ٦٠٠ قبل الميلاد. وقد بجلوا كبار السن. واعتنوا بهم، وكانوا يرفعون قبعاتهم إجلالاً وتقديراً لهم، ولم يطالبوا قط باشتراك كبار السن في أي شيء من باب الاستفادة من آرائهم الحكيمة وتصرفاتهم السديدة. لقد تقبلوا فكرة أن كبار السن قد قدموا كل ما في وسعهم أن يقدموه بمجرد تقدمهم في العمر. ومن وجهة نظرهم أن كبر السن كافٍ لاتخاذ الشخص قدوةً حسنة ومثالاً يُحتذى به."

قال "بيل" مشيراً برأسه في تفكر: "شعب ماساجيتاي، أهه؟ ربما كان يجب أن أكون منهم".

وأعترف أنني عاجلته بقولي: "حسناً، ليس بالضرورة. لقد كانوا يكِنُّون التقدير لكبار السن لديهم حتى يبلغوا سن معينة، ثم يقومون بتحضير حفل عيد ميلاد ضخم للشخص المسن، ويتوجهون إلى منزله وفي لحظة معينة في المساء – على حد ما أتصور أحياناً بعد تجاذب أطراف الحديث وتناول الطعام والشراب – يقومون بقتله.

اندهش "بيل" كثيراً. فقلت له: "لم يكن العيش في العصور القديمة كله لعب ومرح، وحكمة قبلية".

وكان رد فعل "بيل" أن قال بصوت حزين: "إنهم وحوش!"

فقلت له: "ماذا لو رأيت ما كان يحدث بين شعوب المايا؟ إن الحياة بسيطة. ويكفيك أنك حي ترزق، وتستطيع مشاهدة التليفزيون متى شئت، ولا تشارك بشكل كبير في صيد حيتان المنك. كما أن لديك الأوز الذي تحبه يا بيل، فلا تنس ذلك".

أومأ "بيل" برأسه في تمعن.

فقلت له: "لا داعي أن تحمِّل نفسك أكثر من طاقتها. ودع الحكمة للذين يشعرون أن حياتهم فارغة من دونها، إنهم يعيشون في حزن يا بيل. إنهم أشخاص بائسون. أما أنا وأنت، فكلانا يستطيع أن يعيش حياته جيداً دون حكمة". ولكن، تذكرت بعد ذلك هذه الأيام التي كان الناس يكتفون فيها بالاستماع إلى الأقوال المأثورة، فقلت: "هل تعلم يا بيل، عندما تفكر في الأمر، تجد أن الحكمة ما هي إلا كلمة أخرى مرادفة لكلمة عيش حياة جيدة".

لم أكن أعلم بالضبط وقتها ما يعنيه ذلك، ولكن يبدو أن ما قلته قد أضفى على نفسه قدراً أكبر من السعادة. وانسجمنا مع بعض جيداً بعد ذلك. وعندما انتهيت من قهوتي وشرعت آخذ طريقي للانصراف، بدا الأمر كله كما لو كنا أصدقاء قدامى. فبينما كان يودعني لدى الباب، استدرت نحوه ونظرت في عينيه ثم قلت: "إنني بخير يا بيل، ولا تنس أننا جيران وأنك تعيش بجواري".

لقد كانت هذه الزيارة من اللحظات التي لا يمكن للمرء أن ينساها قط، مهما حاول.

ولكن، يبدو أن "بيل" وُضِع في طريقي لمساعدتي في كتابة هذا الفصل الأخير، أو دعنا نسمِّه "الخاتمة". (إذا كان الأمر كذلك، فإنه من المحبط جداً أن تعيش حياةً كاملة، مليئةً بالأحزان والصدمات والتقاليع الغريبة، لمجرد أن يتمكن رجل ثرثار يسكن بجوارك من إنهاء كتابه في موعده للحاق بموسم

البيع.) بعدما دخلت منزلي، وبمجرد أن وضعت مفاتيحي في مكان ما داخل المطبخ، استغرقت في تأملاتي. فقد قطعنا - أنا وأنت - طريقًا طويلاً معًا، وأخشى أن أكون قد تسببت في أذى لأيٍّ منَّا. اعلم أنني كثيرًا ما كنت أنعت نفسي والآخرين على مدار الكتاب بأننا "كسالى"، لكن لعلها لم تكن الكلمة الصحيحة على أية حال. فربما ما نريد أن نُرهق أنفسنا ببذل مجهود غير ضروري، ولكن يجب أن نعلم أن الكلمة المهمة هنا هي "غير ضروري" وليست "مجهود".

إن هذا العالم تتدافع داخله أمواج الهراء والخداع والزيف. إنه عالمٌ مليءٌ بالغباء الواضح، ويفني المرء حياته في وظيفة كثيرة الصعاب دون أن يعتريه أي ملل أو تعب؛ لأنها ببساطة أصبحت جزءًا من هذا الخواء والغباء العام. وفي الواقع، فإن الغباء له صور عدة ويمكن أن يتخفى في صورة حكمة.

إن دورنا - أنا وأنت - أن نتحرر من هذا الغباء وندعه وراءنا، ونساعد أنفسنا عندما نكون على وشك الاقتراب منه. وأعتقد أنني اقتربت كثيرًا من تنفيذ هذه الفكرة بتأليفي هذا الكتاب وبيعه، على حد ما أتمنى. وبالنسبة لك - عزيزي القارئ - فلك مطلق الحرية في الكيفية التي ستؤدي بها دورك. فليست لدي أية أفكار أقدمها، ولكن دعني أعرف إذا كان أمامك أي أمر ذي طبيعة عملية يمكنني أن أساعدك في تنفيذه.

وحقيقةً، فقد كنت سأختتم الكتاب ببيان السبب في تسمية الكتاب بهذا الاسم، ولكن لا أجد مفرًا من ذلك الآن. فلم يكن هناك جبنٌ على الإطلاق. وحتى إن كان هناك، فمن المحتمل أنني كنت سآكله، بدلاً من تحريكه هنا وهناك. إن الجبن ما هو إلا أداة للاستحواذ على ذهنك وضمان قراءة الكتاب حتى النهاية. وطالما أنك قد وصلت الآن إلى نهايته، فإنني أعتقد أن هذا الأسلوب قد نجح بالفعل.

كلمة أخيرة

إنني و"بيل" الآن على علاقة طيبة ببعضنا البعض، فثمة دفء في لقاءاتنا كل صباح. ولكن يبدو أن العادات القديمة لا تنتهي بسهولة؛ فعندما أظل أعمل لساعات متأخرة من الليل، يتملكني شعور قوي للتسلق عبر السور، والتسلل إلى حديقته، وتغيير أماكن تماثيل الإوز. وفي هذا الصباح، استيقظت على صوت "بيل" وهو يصرخ باحثًا عن إوزة ضائعة.

فتحت نافذة غرفتي وأطللت برأسي وأنا أقول: "ماذا حدث يا بيل؟ اهدأ.. اهدأ!"

فنظر "بيل" إليَّ والتقت عينانا مرةً أخرى.

فما كان مني هذه المرة إلا أن صارحته بقولي: "لا تقلق يا بيل، أنا الذي حركت إوزتك الغالية".

تعليمات حول الصفحات البيضاء

سوف تلاحظ - عزيزي القارئ - أن الصفحات الأخيرة في هذا الكتاب تُركت بيضاء؛ فلم يكتب فيها شيء على الإطلاق، سواء رسومات أو صور أو هوامش. على أية حال، فإن ما أريدك أن تعلمه أنني لم أقصد خداعك بهذه الصفحات. لن أنزعج لو فكرت فيها كشيء باعث على الإحباط، ولكن فكِّرْ فيها أيضًا على أنها فرصة.

إن هذه الصفحات البيضاء تمثل لحظات الفراغ التي تتخلل اليوم. ووجدت أن من واجبي ترك هذه الصفحات طوع يديك لعلك تضع فيها نهايةً أفضل أو تعقيبًا مهمًا. ومع ذلك، فهناك مجموعة من المزايا الأخرى لهذه الصفحات، منها على سبيل المثال:

- ربما تقرأ هذا الكتاب في طقس حار، مرتديًا ثيابًا من الصوف ارتديتها في الصباح ظنًا منك أن الجو سوف يميل إلى البرودة بعد الظهر. إذا كان الأمر كذلك، فستكون هذه الصفحات مناسبة تمامًا لمسح العرق الذي قد يعتلي وجهك.
- بصرف النظر عن كون هذه الصفحات جزءًا من الكتاب، يمكنك أيضًا استخدامها لعمل أشكال كطيور وزهور، وذلك على غرار فن "الأوريجامي" الياباني.
- تستطيع استخدام هذه الصفحات لعمل قائمة مراجعة تتضمن كل ما تعلمته في الصفحات السابقة. فمع كل صباح جديد، يمكنك توجيه التحية إلى العالم من حولك ثم الشروع في تدوين نصائح قيِّمة تعلمتها. وعلى الرغم من أنني لا أريد أن أفرض عليك أفكاري، فثمة بعض الاقتراحات البسيطة التي أود أن أقدمها إليك:

✓ عندما تهديك الحياة ثمرة مانجو، استخدمها في إعداد عصير طازج.

- ✓ الغباء هو أن تتصرف بغباء، لذلك توقف عن التصرفات الغبية.
- ✓ الحياة كعلبة شيكولاتة باهظة الثمن، قد تشعر بالإعياء إذا أكلتها بسرعة. ومع ذلك، إذا رآها الآخرون معك، فإنهم يحاولون جاهدين أن يخطفوا قضماتٍ منها.
- ✓ فكرْ قبل أن تتكلم، واقرأ قبل أن تفكر، واغسل يديك قبل أن تقرأ.
- ✓ قل لنفسك دائمًا "إنني بصحة جيدة."
- ✓ لا تهدر الوقت وأنت تتساءل عما إذا كان الكوب نصف ممتلىء أم نصف فارغ. إذا كان الكوب لا يزال يتسع للمزيد، فاعلم أنها فرصتك لبدء جولة جديدة.
- ✓ في الحياة، تمامًا كما في الأحاديث التي تدور على مائدة العشاء، يتفوه الأحمق فقط بكل ما يعنيه، والممل فقط هو من يعني كل ما يقوله.
- ✓ لا تكتفِ بقول "لا" ولا القيام بما يُطلب منك فهذه الأمور تحتاج إلى الكثير من الحيطة والحذر. ولكن، اكتفِ فقط بأن تقول: "إنها فرصة لي كي أعلم، وفرصة لك كي تكتشف". قُلْ فقط: "ربما نعم، وربما لا". ببساطة، لا تقل شيئًا على الإطلاق.
- ✓ احرص على مغادرة الحفل دائمًا قبل خمس دقائق من انتهاء الموضوعات التي يمكن أن تتحدث عنها.

وفي النهاية، فإنني أتمنى لكم جميعًا الصحة والعافية. وإذا شعرتم يومًا أن قواكم تخور ومعينكم ينضب، فتصفحوا هذا الكتاب. وعندها سوف تتذكرون ما قلته:

"إنَّ كل شيء في هذه الحياة يحتمل الزيف والتلفيق".

الفهـرس

دليل لمساعدة النفس وتطوير الذات

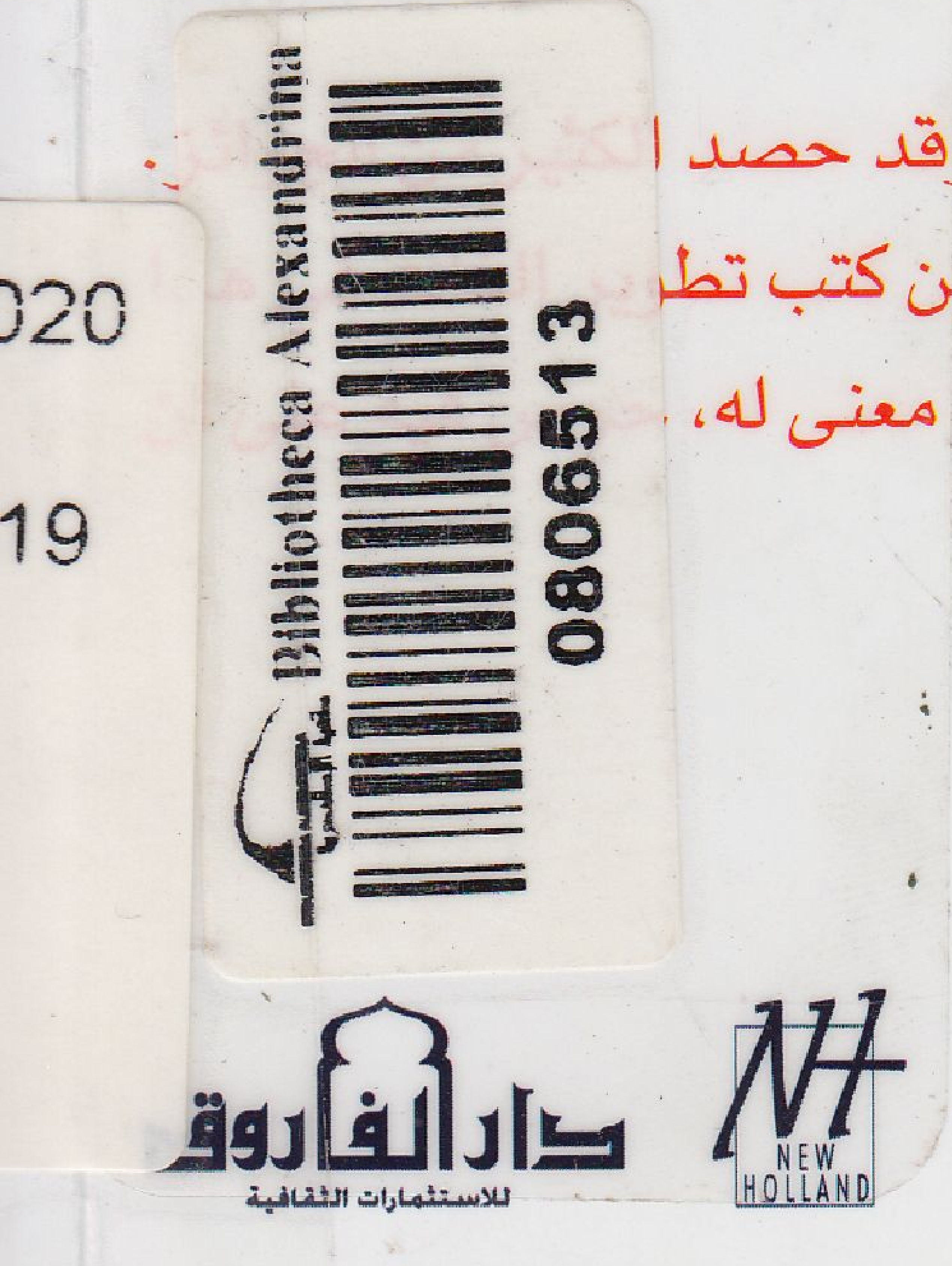
إن المشكلة في كتب تطوير الذات التي تكتظ بها الأرفف في المكتبات - بالإضافة إلى أنها كتب عقيمة كتبت على أيدي مؤلفين غير محنكين، أنها تتوقع منك أن تؤدي كل شيء بنفسك. فأنت مطالبٌ بأن تقرأها، وتتذكر الكلمات الرئيسية فيها، وربما حتى أن تطبق ما تعلمته منها في الحياة اليومية.

فإذا أردت خطوات سهلة لتصبح شخصًا مميزًا لا مثيل له وتحيا حياةً رائعة، فعليك أن تطالع صفحات هذا الكتاب على الفور.. إنه كتابٌ غير تقليدي لتطوير الذات، موجهٌ للأشخاص الذين ينأون بجانبهم عن اتخاذ أية خطوات.. وأولئك المتكئين على الآرائك ولا يريدون بذل أي مجهود. إنه الكتاب الذي سوف يخبرك عن كيفية حصاد الإيجابيات المترتبة على أن تكون شخصًا أفضل، دون أن تزعج نفسك بالعبء غير الضروري لتحقيق هذا الهدف. فمن خلال هذا الكتاب، سوف تكون أفضل وأسعد حالاً وأكثر إقبالاً على الحياة.

وعن محتوى هذا الكتاب، فسوف تلاحظ أنه قد تمت معالجته بشكل جديد تمامًا يسمح بتذكر المادة المعروضة وحُسن استيعابها واستخلاص العبر منها، كل ذلك بطريقة مباشرة؛ مما يعطي القارئ فرصةً أكبر للتركيز ومواصلة القراءة.

نبذة عن المؤلف:

"داريل بريستو بوفي" هو كاتب عمود في إحدى الجرائد وقد حصد ا...
وضع "بوفي" خلاصة أفكاره التي استقاها من مجموعة من كتب تط...
الكتاب. وقبل أن تبدو وكأنها تكرار جريء لكلام أجوف لا معنى له، ...
يكشف الحقيقة الأكيدة في مختلف أمور الحياة.



ISBN 978-977-455-664-1

